إلى أين؟

رواية مصرية ادبية غرامية جنائية ذات حوادث مؤثرة

تأليف

على مصطفى محمد

﴿ جميع الحقوق محفوظة ﴾

تطلب من مطبعة التقدم التجارية ومكتبتها

بدرب العنبة عطفة عبد القادر نمرة ٥ شارع محمد على بمصر

لصاحبها فهمى يوسف

ومن فرعها بشارع الصنادقية بجوار الازهر الشريف بمصر

مطبعة التقدم التجارية

obeikandl.com

مقدمة

هذى قصة جديدة فى نوعها أقدمها الى القراء الأعزاء ، وأملى منهم أن يغفروا الى هفواتي إذ رمونى بالخطأ فما الكامل سوى وجه البارى جل وعلا.

وان كنت قد وصفت طبقة من طبقات (الأولياء) بما جاء فيها فليس هذا معناه أن ذلك يتناولهم جميعا : ففى كل طائفة حلوها ومرها وفى كل بلد همها وسرورها . وليس ببعيد أن يسطر الكاتب قصته (الواقعية) ثم يقع نظره على خبر مماثل حوادثها . وهذا هو ما فى الواقع فانى قرأت فى قصاصة من جريدة سيارة نسيت اسمها ، خبرا مشابها لناحية من حوادثها على التقريب ، غير أنه يقع فى بلد أجنبية : وهو أن راهبا فى أحد أديرة جبال الألب حوكم أمام محاكم الجنايات لأنه كان يغوى بعض الراهبات الحديثات . وليس هذا فحسب ، بل العالم كله يغص بأشباه هذه الحوادث : من المسلمين إلى المسيحيين الى اليهود وغير ذلك وقلوب من على سطح البسيطة مليئة بالوفاء والغدر ، والخير والشر ، والايمان والكفر ، والحب والمقت ، والصدق والكذب ، والاخلاص والرياء ، الى ما هنالك من مختلف السجايا والصفات .

ولا عجب إذن أن يتقدم كاتب بقصة محدثة واقعية مشحونة بمختلف المناظر كهذه ، فالقصة الواقعية لدى — مهما قلت قيمتها — أحسن وقعا على النفوس وأشد تأثيرا من القصة الخيالية .

وفق الله (الأدباء) وخيرة الكتاب لرفع قدر الأدب القصصى ، وأشركنى سبحانه وتعالى فى جزء من تلك المهمة علنى أقدم شيئا مسليا إن لم يكن نافعا بقصصى تلك ، علها تدخل عليكم شيئا من السرور . وكلمة أخيرة أحب أن أختم بها وهى ان وقعت لديكم ، وقع الحقارة فكاتبها أحقر من أن يلتفت اليه ، والله تعالى هو الموفق الى سواء السبيل ؟

المؤلف : على مصطفى محمد

obeikandi.com

تصدير

جمعتني الصدف ذات يوم برفيق قديم من عهد الدراسة بعد فرقة خمس أعوام ، فألفيت حاله حالا ، إذ نزل به ميزان الحياة الى الحضيض وسكن إلي يشرح لى فى مجالس المسامرة مااعتراه : كيف هادنته الآلام وسايره الشقاء طيلة مدة غيابه عنى ، فتأثرت نفسي لمصابه ، ونظرت اليه فوجدت الدمع يترقرق من عينيه ، ونشيجه يصل الى آذانى خافتا كأنه صادر من أوتار شدها مفتاح البؤس والتعاسة ، فأطرقت حزنا ، ثم رفعت اليه بصري فألفيت وجهه مكفهراً وأوداجه متقلصة ، وسمعت صوته يتكسر خافتا ، يلعن العالم ومافيه ، وصار فى حال لم أعهده فيها من قبل . حال مثل لسانه يقول :

ماأقل الناس فى دنياي   جمعهم واحد وواحدهم جمع عددا
أناس لافوائد فيهم   أجتنيها للنفس نفعا أو سندا
ضاقت البسيطة على رحبها   فلاولن تخفف عنى غادة خردا
ماأحلى تزاورى الى لحد   على ضيقه يسعنى مستضيفا قعدا
أياناشد الدنيا الدنية وطالب   سعادتها : لن تنالك غير الردى
رويدك من بريقها وزخرفها   مهلا حذار الك منها الصدا
فناء الك أبتغيه من الجليل   هلا كالك وثراقسا كنيك أبدا

وأخذت أخفف عنه جهد ماملكت نفسي ، ورويدا رويدا كان لايعرف البؤس أمامى . فكان يضحك ، ولكن عن جروح لاتلتئم سهلا وعلى ذلك أخذت أسلي فؤاده بشتى الاقاصيص والشذرات المبهجة .

وألقيت عليه ضمن ماكنت ألقى له هذا الكتاب ، وكنت قد اختلست حوادثه من أخبار الصحف السيارة وقتئذ ، وأدمجتها في بعض حكاية شاهدتها بنفسي ، فابتهج له وشغله الحديث به زمنا عن مصائبه ، وأعجب

به جداً ، واقترح على اخراجه للملا تحت عنوان (الحاج عمر) فضحكت له قائلا : ليكن ذلك . وكنت يقولى هذا لاأقصد نشره قط .

ولم يدر الحول دورته حتى قبض الله روح ذلك المسكين اليه ، فذهب ونفسى مليئة بالأسى والحزن على ماعاناه إبان خوضه غمار الحياة المضطربة العباب .

وأزف ميعاد ذكراه ، ولم أجد ماأسجل أيامى به مع هذا الصديق الراحل .

وفى لحظة من لحظات خلود النفس الى التفكير عاودنى الاهام بكتابى هذا فعولت كتابته بأسلوب قصصى ، حتى أرضى روح ذلك الصديق فى مجثمها الأبدى ، وتركت الاسم (لقصتى هذه) كما اختاره لها .

وان كنت أقدمها اليوم ، فلا أقدمها إلا لروحه الطاهرة النقية ، التى خرجت من العالم دون أن تعترف اثما ، وان أهديتها فلا أهديها الا الى جثمانه الفانى .

ولست أبغى من وراء ذلك سوى ارضاء روحه فى مثواها ، علها تصفح عنى ان كنت لها يوما أسأت . . .

أمطر الله عليه رحمته ، وهو أرحم الراحمين ؟ المؤلف

على مصطفى محمد

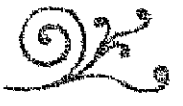

الفصل الاول

الشرر

كانت فرقة الموسيقي تعزف نشيدا حديثا حلو الوقع على النفوس ، مما جعل كل الحضور يرهفون غرب آذانهم ينصتون السمع ، أو بالحرى قل أنهم أقدموا على اقتناص الفرصة ليطربوا أنفسهم بتلك التوقعيات الشجية التي لاتصل إليهم إلا فى فترات متباعدة

ولاغرو فى ذلك فانهم قوم فى منأى عن مباهج الدنيا ولذائذها ، أوجدتهم الطبيعة فى مدينة (سمنود) من أعمال مديرية الغربية ، ذلك الاقليم البعيد عن وسائل الطرب والانشراح ، فكانوا لا يعرفون من الامور سوى عناء العمل والكدح مجرى الحياة .

عقدت تلك الحفلة لمناسبة إجراء مراسيم زفاف أحد الشبان الذى بنى على فتاة من إحدى القرى المجاورة ، فما أن زفت إلى منزله حتى احتشد القوم من معارف وأصدقاء ، قدموا للتهنئة ، ومشاهدة الحفلة .

و كان ذلك المنزل يقع فى حى آهل بالسكان بالقرب من ضفاف (نهر النيل السعيد) ، الذى يمر على تلك البلدة ، يشق أراضيها بمياهه الحلوة ، فازدانت به وحباها نعمة لم تنلها غيرها من البلدان . وانتهى عزف الموسيقى فصفق الحاضرون طويلا حتى طفرت الحمرة إلى أكفهم ، غير أنهم لم يكفوا عن ذلك إلا عندما أشار (رئيس الفرقة) إلى مرؤوسيه يستأنفوا فى العزف من جديد ، وما قليل كانوا يقومون بعملهم خير قيام . واجتذبت الجمهور شاعرية الموسيقى وأخذهم سحر عزفها ، فتركوا حبل سرورهم لغاربه ، وما لبثوا أن قاموا على أعقابهم ، وأخذوا يرقصون رقصات الفرح والانشراح ، يستغلون سنوح الفرصة قبل فواتها . ولا عجب فى ذلك فمن منهم يكلف نفسه مشاق إحضار (موسيقى) من

عاصمة المقاطعة البعيدة ؟

فأخذوا ينتهبون من المسرات والبهجات مايرفع بهم عالياً في سماء الافاريح والجذل .

وعكر صفو سرورهم وحبورهم جلبة عالية وضوضاء مرتفعة ، وجفلوا مذعورين لصيحات الاطفال وصراخ الغلمان والاولاد الذين استداروا حول عقد الاجتماع .

وميزوا صوت شخص يعهدونه من قبل ؛ فأسرعوا وهدأوا في مقاعدهم السابقة ، وأدى ذلك أيضا الى انقطاع الموسيقى عن العزف ، بينما رنت الارجاء بصدى صوت قوى النبرات يتوجه لكل من وجد بالمناوءة وفي لهجة التحدى . ورفرف على رؤوس الجميع الطير ، ولم يجسر واحد منهم على أن ينبث ببنت شفة كما لم يملكوا القوة للتحديق في وجه صاحب الصوت ، بل غض كل الطرف حسيرا .

كان صاحب الصوت شابا ضخم الجسم ، عريض المنكبين ، أحمق الارومة ، يناوئ القوى ، ويعايل الضعيف ، لايخشى هيبة مسن ، ولا يتوافر لشيخ ، عياثا بالاذلام والارجاس ، اذا اجتمع في ثلة من رفاقه وتنازعوا في أمرهم ، بدا منهم وعلاهم بكلمة من عنده فيلجموا كلهم صمتا ورهبة منه .

نشأ نشأة حقيرة ، إذ شب على الفساد ومعاشرة رفقة السوء . قضى ردحا من غلوميته يرتاد شواطئ الغدران والمستنقعات يحمل شعه صحبة قرنائه ، ويغطس في الماء حتى ثندوتيه (١) ، يعاكس سكان الماء بعد أن أقلق بمشاغباته سكان اليابسة .

وكانت — إذ ذاك — تمخر به دولة الشباب في عباب الحياة ، فأخذ يناوئ الأهلين ، ويقاوم كل من تعلو كلمته يريد نزع السيطرة له ، حتى

(١) ثندوتيه — بمنزلة الثدى عند الرجال

ضجت البلدة بشروره ، وهالتها أعماله وموبقاته ، فأنت تحت أعباء ذلك الروح الثقيل الذي يكاد يصرعهم تحته .

وكان والد ذلك الطاغية شيخا هادئا ، بلغ من العمر أرذله ، ضعيف الجسم ، نتأت أشاجعه ، وبرزت عظامه ووخط شعره المشيب ، يتوكأ على غصن أخضر .

فقد سيطرته على ذلك الشاب — ولو أنه لم تكن له عليه سيطرة — منذ نعومة أظفاره إبان عهد البأبأة (١) حين كانت أمه تداديه وتدلله ، تقيه شر غضب الوالد (البار) ، ولا عجب بعد ذلك فان (تهامى) — الشاب — خرج من جامعة الطفولة الى الغلومة فالشباب ، وقد أتقن علوم النطح والضرب والسباب على يد أستاذته الماهرة (الوالدة) .

ولم يعقه شيء اسمه القانون ، ولا شدة أولى الامر عن اظهار بطشه بل أزاد ذلك من جنون ثورته ، فراح يطيش الطيش كله ، يملى به النزق المغرى عمله ، فيظن أنه ابن بجدتها ، لا يتوانى من نفخ أوداجه سرورا ويحمله غروره على أنه رب البلدة وسيد شبابها .

وفى ذلك المساء بينما كان يضرب الى منزله فى صحبة فريق من قرنائه الألى جعلوا من أنفسهم أتباعا له ، فجعلهم عونا على الشدائد ، اذ أخذ سمعه عزف موسيقى حى يقرب من مأواه ، فأشار على من معه بالتوجه الى هنالك ، حتى ينالوا بهجة وحبورا من تلك الافاريح الطارئة بدون اختلاسها

ولم يجد رفقاءه مندوحة من طوع أمره بالرغم من أن النعاس قد بدأ يلعب بأجفانهم ، وفتحت أفواههم تتثاءب المرة تلو المرة ، وقد أثر فيهم هواء الليل الرطب ، والنسيم الخفيف الذى كان يهب عليلا بليلا

تقدم تهامى يتبعه أعوانه ، وصاح بمن وجد أن يفسحوا له طريقا

---

(١) البأبأة — مناداة الطفل لوالده (بابا)

obeikandl.com

الى وسط المجتمع المعقود ، ثم شق الجمهور المحتشد ، وعرج على أحد الحضور وانتزع منه عصا ضخمة ، وأشار الى (الرئيس) أن يعزف أحسن مالديه ، وحاول (الرجل) أن يعترض على تلك اللهجة الجافة التى يحدثه بها ، وتلك الفطرسة التى يبديها ، الا أن رب الحفلة ، وابنه (العريس) ، أشارا له أن يذعن لمطلبه ويفعل مايريد حتى لاتسوء العاقبة وكيلا تكون النهاية وخيمة .

وأخذ الشاب يرقص ويتلوى ويتحرك بحركات يمجها الذوق وتسأم لها النفس ، لكن الناس تسايره وتمالئه ، حتى لايريهم مافى جعبة شروره من الويلات والمرعبات .

وأخذ يختلس النظرات أثناء رقصه بالعصا الى الشرفات ، ويميل بعينه من هذا السطح الى ذاك ، ثم يتحول الى ماوراء النوافذ علّه يرى أنثى من بنات حواء ، ترى منه حركاته وسكناته ، ليمتع بمرآها حدقتيه ويستشف منها أهواءها نحوه

لقد كان — إذن — لايفعل أفاعيله تلك الا لجذب أنظار الجنس اللطيف نحوه ، ولايبغى من محاولاته العنيفة تلك ، ولا يامل من وراء سلسلة مناوآته العديدة الا تطاير اسمه على ألسنة النساء ، يريد أن يتخذ ميدانهن مرتعا خصيبا يحقق فيه أحلامه فيروح فيه ويغدو ، ولكن أمانيه مازالت بعيدة ، غير أنه كان يعلل النفس أنها فى حيز التحقيق فى القريب العاجل .

وكانت عيناه كزئبق رجراج يميل من جهة الى جهة ، وأنفاسه تتردد سريعا وقد أخذ يلهث لفرط تعبه ، غير أنه أخفى مابدا عليه من ذاك الامر حتى لايعيرونه بالانخذال على هذا النحو .

وبينما هو مشتغل برقصه ، وعيناه مشتغلتان بالمراقبة ، اذ أخذ نظره شيئا فى طيات الظلام المتباعد ، جعله يكف عن الرقص فجأة ، وقد وجد عذرا يبرر له ترك المجتمع ، فطرح من يده العصاة ، وانتظر قيلا ، ثم

انطلق في سيره بعد أن أشار لرفقائه بعدم متابعته ، فاطاعوا أمره صاغرين وكأن حملا ثقيلا أزيح عن كاهل أرباب (الحفلة) والحاضرين ، فلم يهتموا الى أين وجهته ، بل أقدموا على سرورهم مغتبطين لذهابه

ولم تكد تمض فترة وجيزة على سير ذلك (الشرير) حتى طرق أسماعهم — إبان وهلة سكون قصيرة — صوت استغاثة من مكان قريب مظلم فأرهفوا آذانهم وميزوا الصوت واضحا ، وكان يبدو نسائيا يتخلله نبرات الضعف والهزيمة ، فهبوا كلهم كتلة واحدة ، وتناولوا المصابيح يكتشفون بها الطريق ، وما أن واجهوا المكان الذي صدر منه الصوت حتى جمد الدم في عروقهم ، ولم يجدوا قوة كافية على التقدم ، فوقفوا معقودي الالسن

وكانوا قد شاهدوا منظراً مريعا عقد عليهم الرعب فامتلكهم الخوف الا أنهم نظروا الى بعضهم نظرات التجلد ، وشدوا أزر بعضهم وحملوا بجموعهم حملة عنيفة كأنهم سائرين الى حومة الوغى

كانوا قد رأوا الشرير تهامي يسند ظهره الى حائط ، وأمامه فتاة ناضجة ، ممزقة الثياب ، تظهر عورتها واضحة جلية ، والدماء القانية تسيل على فخذيها ، وقد ظهر ثدياها مشوبان بزرقة وورم أثر قبضة ذلك الوحش الجافة ، ووجهها محتقنا للوعة المفاجأة ، والدمع الهتون يهطل على وجنتيها ويا ليت كان ذلك فحسب ، بل كان هناك على الارض شخصاً طريحا في بركة من الدماء ، وقد ولت عنه حشرجة الموت منذ حين ، وصار جثة هامدة مخضبة بالدماء الحارة .

وكان وجه تهامي ممتقعاً ، وأصبح جسمه يرتجف وينتفض بشدة ، وقد قبض في يده على خنجر يلمع متلالئا على أنوار المصابيح التي يحملها القوم ، وقد لوث بالدم ، كما تلطخ ثوبه ويديه به أيضا ، ولما شعر بهم على رأسه تجهم وجهه وتقلصت عضلاته ، وتملكه غيظ أخاذ امتزج

ببريق عينيه .

وخشى الناس أمره فتريثوا فى مكانهم ، وسمعوا لسان الفتاة ينطلق من عقاله ، والعبرات تنهمر كالسيل على وجنتيها المكفهرتين ، وقالت بكلمات متقطعة تشرح الأمر دون أن يسألها أحدهم :

— كنت قد عولت على الذهاب الى منزلى بعد أن أخذت كفاية نفسى من انتهاب السرور فى الحفلة ، ولكنى ما كدت أتوغل فى الطريق المظلم حتى شعرت بوقع أقدام تقترب من خلفى ، ثم وجدت نفسى بعد لحظة وجها لوجه مع ذاك الشقى ، وطارحنى الغرام يريد أن يتمتع منى بالشهوات الجنسية المحرمة ، غير أنى سرت دون أن أفوه ببنت شفة ، ولكن مالبثت أن شعرت به قبض على ، وأغلق فمى بيده القوية ثم قضى ما آربه منى رغماً عنى

قالت هذا ، وأخذت تبكى وتنشج نشيجاً مرا ، ثم واصلت حديثها قائلة :

— نعم لقد اقتض عفافى على قارعة الطريق ، وبينما هو كذلك اذ صادف سير هذا الشاب طريقنا ، وعاهده يرتكب ذلك الاثم الكبير فعزم على مناوأته ومساعدتى ، ولكن بعد أن سبق السيف العذل وتركنى جانباً يرى أمر هذا المفاجىء ، ولكن الآخر استعد له ، غير ان المجرم أخرج خنجره وطعنه به فى حنجرته طعنة نجلاء لم يتمكن لها من الصياح . . هذا مافعله ذا كم الشرير .

والتجم الناس صمتا طول تينك الجريمتين ، ثم مرث لحظة وكأن على رؤوسهم الطير ، وبعد هنيهة تحولت نظرات كل منهم الى رفيقه ، ورأهم يستشيرون العزائم للايقاع به ، وصاروا يتقدمون رويدا رويدا غير أنه انفجر مرة واحدة فأخذتهم القشعريرة والرعب ، وقبل أن يتبينوا ماذا يفعل رأوه يقفز قفزة هائلة وعدا قليلا ثم ألقى بنفسه فى ماء النيل القريب .

وامتقعوا ذهراوغيظا حيث أرادوا أن يقدموا ذلك المجرم للمحاكمة كى تقتص منه العدالة الانسانية التى أزعجها ، قبل أن تؤاخذه على ذلك العدالة الالهية ، وبحثوا عنه فى الماء طويلا على غير جدوى ، ولما أعياهم ذلك كفوا البحث وهم يتأسفون لافلاته ، وظنوا أن التيار حرف جثته الى عرض النهر ، وكانت الحسرات تأخذ سبيلها الى نفس كل منهم ، بينما كانت تحقيقات أولى الأمر تستطلع أسرار المجرمتين ، وكل شخص يهيمن (١) أن تهامى هو المجرم القاتل .

وأدت الفتاة شهادتها باكية ، وأدى الرجال أقوالهم أنه انتحر ، غير أنها التفت اليهم وقالت لهم متفحمة :

— قد لايموت هذا الشرير ، ويرجع لنا مرة أخرى يظهر لنا مالا يخطر ببال .

الفصل الثانى

فى مكة المكرمة

لنترك تلك الحوادث على أن نعود للتعليق عليها فيما بعد ، ولنتقدم بالاعوام بعد ذلك ثمانية عشر ، ثم لنذهب مع القارىء الكريم (بالخيال) الى مكة المكرمة (ان شاء الله تعالى) .

مكة ، وتسمى أم القرى ، مدينة زاهرة كبيرة ، وهى عروس بلاد العرب ، ترتفع عن سطح البحر بنحو ثلاثين وثلاثمائة متر ، وتصعد عمارتيها الى عهد ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام ؛ وهى قصبة الحجاز وقلب الدولة الاسلامية .

تمتد من الغرب الى الشرق على مسافة أربعة أميال ، ونصف ذلك عرضا ، فى واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال

---

(١) يهيمن — يشهد

تكاد ان تتصلا ببعضهما من الشرق والغرب والجنوب ، ولذلك لاتشاهد أبنيتها للقادم الا وهو على ابوابها .

وفى زمن الحج تغص بكثير من الحجاج يقبلون اليها من جميع أنحاء العالم الاسلامى ، يتشرفون ويتبركون ببركة النبي ﷺ ، والكعبة المعظمة شرفها وحرسها الله .

وفى ذلك العام كان ازدحام الناس شديدا من كل الاقطار ، وكان من بينهم الركب المصرى يزخر بعدد عظيم من القاصدين زيارة بيت الله الحرام .

ولو تقدمنا قرب طليعة الخارجين من الحرم ، لوجدنا شيخا كبيرا أفنته السنون ورققت من جلده ، ذو لحية بيضاء ناصعة ، ومعه رجلا آخر هو مواطنه يبلغ من العمر الأربعين ، له لحية حالكة كثة ، ولم تعمل غضون الكبر فى وجهه شيئاما ، وقد وخط قليلا شعر رأسه المشيب

وكان هذا يصحب الشيخ بصفة (وصيفه) وولي عهده فى زمام العبادة . والتفت نحوه الشيخ وقال له في بهجة واضحة :

ـــ هاقد وصلنا الى أمنية ايمانا ياحاج عمر .

فتمتم المدعو الحاج عمر بكلمة أو كلمتين أجاب بهما حديث الشيخ ، واستطرد هذا يقول :

ـــ هل دققت رقابنك على الامتعة كما أفهمتك قبل قيامنا من جدة على متن الابل ؟

فنظر الحاج عمر الى زميله نظرة قصيرة ، وقال له بصوت خشن ينم عن جسم صاحبه القوى :

ـــ كن مطمئنا ياحاج ابراهيم . ان (الجمال) لايستغني عن حياته ليسرق منا أشياء تافهة لاتسد جوعه ولا تنفعه

فضحك الشيخ ابراهيم ضحكة قصيرة لم يسمح له ضعف جسمه

باتمامها ، ثم قال مازحاً :

— وماذا كنت تنزل به لوخاننا ياعمر؟ . أتعيد معه لعبة من ألاعيب الطيش الماضية ؟

فرمقه الحاج عمر شذرا ، ثم انطلق لصاحبه جذلا يحاوره .

— ولم لاياعزيزى ؟ لوسرق منا شيئا لسرقت منه يده مقابله . أليست أحكام الشرع الشريف تسرى بنصها فى هذا المكان ؟ .

فغضب الشيخ ابراهيم لحديث الحاج عمر ، وصاح فيه :

— نعم إن الامر كذلك . ولكن ضع نصب عينيك أننا مصريان ، والمصرى كريم مسامح ، فلا تؤاخذ أولئك التعساء الذين يعيشون فى القفار على امتداد أيديهم إلى شيء تافه كأمتعتنا يتبلغون به

وصمت الرجل قليلا ثم نظر إليه واستطرد فى تمهل :

— حاج عمر : أمازالت تلك النفس القديمة عالقة بجسمك ؟ . النفس الشريرة التى حاولت جهدى تغييرها بأخرى صالحة حتى فزت أخيرا بما أريد . . يلوح لى أن آثار تلك النفس مازالت معك على الرغم من حلول روح جديدة طاهرة فيك ! . .

فأطرق الحاج عمر ببصره إلى الارض ، وعمل فى نفسه كلام استاذه الكبير الشيخ ابراهيم ، وتذكر حسناته العديدة التى غمطها عليه ، وكم حاول جهده تهذيبه حتى فاز ، . فرمقه بعين دامعه وقال والعرق يكاد يتصبب من جبينه :

— كلا ياسيدى . كلا . إن الروح الجديدة الطاهرة هي التى تسيطر على جسمى الآن . إن تعليماتك المقدسة لدى ، وشريعة الرسول الغراء ، وحكم القرآن الكريم . كل تلك هى المصابيح الوهاجه التى تنير سبيلى المظلم (القديم) فتبدد غياهب تلك الغشاوة الكثيفة التى كانت تحجب عنى الرشاد

وتحول مرأى الشيخ ابراهيم إلى هيئة البشر والاطمئنان ، ثم قال باسما :

obeikandl.com

— أنعم بك من رجل بمعنى الكلمة . . رجل نقي صالح ، تسير على المبادىء الوضعية التي قررتها النواميس مما يؤهلك جيد الولاية منصبي بعد موتي .

ولبث قليلا ، ثم رأى دموعا تطفر من عيني الحاج عمر ، فواصل حديثه بمشقة يقول :

— الآن ياعزيزي هاقد زرنا الكعبة المشرفة ، فأرى أن أطوف معك في زيارة بعض الاماكن المقدسة التي لها إرتباط بحوادث النبي ﷺ .

فسر الحاج عمر لدى سماعه قول استاذه وصاح طربا :

— إن ذلك مما يسرني جدا ياعماه . .

وغمغم الشيخ ابراهيم بصوت تفهم نبراته بالسرور :

— اذن ادع جمالا يكون على علم بطريق الصحارى ومجاهلها :

فأجاب عمر بكلمة واحدة ، ثم انطلق يبحث عن (الدليل) ، بينما كانت أصابع الشيخ ابراهيم (تقرطس) السبحة سريعا ، وفمه ينطلق بتسبيحات خافتة .

وكانا قد نزلا بمقهى فاخر في شارع جياد — أهم شوارع مكة — ريثما تمتلكان الراحة قليلا مما عانياه من وعثاء سفرهما المتعب الطويل .

وكان الشيخ ابراهيم في لهفة وشغف لزيارة الاماكن المقدسة التي بظاهر مكة حتى يكحل بها مرآه ، مما جعله يطلب تحقيق ذلك من الحاج عمر بشوق واهتمام .

وعاد الحاج عمر الى المقهى بعد هنيهة يتبعه أعرابي قوي الجسم وتلوح عليه الامانة من بريق عينيه ، وجلسا معا الى الشيخ ، وأخذوا يتحدثون في امر الزيارة ، ولما علم الرجل أن زيارتهما خصوصية ، عرض عليهما أن يريهما قبري الطاهر والطيب ولدي رسول الله ﷺ في (الطائف) وأعجب الشيخ ابراهيم بذلك ، فامهلهما حتى الصباح ليعد المعدات اللازمة ، ويحضر لهما ثلاثا من كرام الابل . .

وقال الشيخ ابراهيم يحدث (الدليل) بلهفة :

ـ وما المسافة بيننا وبين الطائف ؟

ـ للوصول اليها طريقان ياسيدى ، ولكما اختيار مايوافقكما . فهناك مسلك القافلة ويبلغ مقدار السير فيه ستة وثلاثون ساعة ، وهناك سبيل البغال) على جبل كرا ، ومقداره مايقرب من منتصف الاول ، غير أنه يغص بكثير من القردة والوحوش الضارية ، خصوصاً على جبل لهدى أحد أجزائه .

فأسرع الحاج عمر وقال جذلا بينما كان يفرك كفيه أثر عاطفته :

ـ أرى أنه من الاجدر لنا أن نسلك (طريق البغال) ، فانه أقصر وقتا من الاول .

فنظر اليه الاعرابي شذراً وقال :

ـ ان الطريق خطر ، فهل تقامر بحياتك ومن معك ؟

فابتسم الحاج عمر ، وربت على كتف الاعرابي بسرور ، وقال :

ـ اطمئن ياعزيزى . ساعد للامور عدتها ، فلا يطرأن على بالك أنى أسافر أعزلا .

وأسرع الشيخ ابراهيم الى الاعرابي وقال له :

ـ ألا يوجد هناك أماكن مقدسة نزورها أثناء رحلتنا ؟ . .

ـ هناك (المعلى) ، وهى مقبرة مكة ، سنزورها أثناء سيرنا .

وتملكت عاطفة السرور أسارير الشيخ ، فما لبث أن اشار الى عامل المقهى ان يحضر للرجل مايريد ، وبعد قليل احضر (العامل) اوانى واقداح الشاى والقهوة ووضعها امامهم على الارض .

كان الوقت مازال مبكراً حتى يحين ميعاد التاسع والعاشر من ذى الحجة ، مما جعل الشيخ يسرع برغبته فى التجوال قليلا بين الارجاء المقدسة التى جال فيها صفوة الانبياء وخيرة الصالحين فى العصور السالفة .

واتفقوا على ان يبدأوا السير من اليوم التالي ، بعدان يرتب الشيخ ابراهيم الضعيف والحاج عمر القوى مايحتاجاه من الامتعة لهذا السفر .

الفصل الثالث

ظواهر حسن العبادة

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وبعد صلاة الفجر ، ذهب الحاج عمر بصحبة استاذه الى المقهى ، وبعد قليل وافاهما الدليل بابله ، ثم اخذوا يحملون ظهورها بمختلف الامتعة اللازمة ، واخذ الاعرابي قربتين ملأهما ماء من المقهى ، ثم وضعهما في امكنة خاصة بهما على متن جمل عالى الهامة قليل الاحمال

وتحسس الحاج عمر منطقته ، ثم رمق الشيخ ابراهيم ببصره ، وغمز اليه باشارة ذات معنى ، وقد اطمأن لها هذا . وأخذ الحاج عمر يصعد بصره عاليا إلى جبال أبي قبيس التي تشرف على مكة من الجنوب الشرقى ، ثم حول نظره إلى سيده والدليل ، وقال وهو يهز لهما رأسه :

ـ من منكما يخشى الوحوش الضارية والهوام الفاتكة ؟ . .

فابتسم الشيخ ابراهيم وقال بلهجة الواثق :

ـ إني لاأخشى شيأ مادمت معك ياعزيزى . . إني لاتوسم فيك البطولة الى جانب خلة الصلاح . فغض الحاج عمر ببصره احتراما وقال :

ـ ان ذلك ياسيدى لم أكتسبه الا من تعليماتك الشريفة القوية . . . .

كانت شوارع مكة فى تلك اللحظة خالية من المارة تقريبا ، ولم يكن هناك من احد يسير سوى نفر من حجاج الهند والصين وجاوة ، خرجوا متفرقين بدافع الشوق والتلهف يستطلعون اسرار مكة الجذابة وامكنتها الجميلة ، وكان الجو يكون هادئا لو لم يكن يردد اصداءه صوت الاعراب الذين يعلنون عن الالبان ، يسحبون خلفهم نياقهم وشويهاتهم . .

وسارت الابل تحمل الحاج عمر والشيخ ابراهيم والدليل الاعرابي (ابن زيد) وخرجت من مكة يمينة قطر الصحراء ، ولا يعلم وجهتهم احد ، وبعد برهة وجيزة خلفوا الباب الشرقي وواجهوا المعلى (وهي مقبرة مكة) فترجلوا واخذوا يطوفون في ذلك المكان الذي يتجلى بالقداسة والخشوع الرباني ، ولا غروفقيها ضريح السيدة خديجة زوج النبي ﷺ وهو داخل قبة ضخمة تجددت منذ اكثر من نصف قرن ، وفي القبة مقصورة من خشب الجوز اقيمت على قبرها الشريف ، والى جانبها مقصورة صغيرة يجثم في بطن مدفنها ستة عشر شخصا من اشراف مكة . وبعد ان زاروا ضريحها ساروا خارج تلك القبة الى الغرب ، وكان في سبيلهم قبر حرم ما كن الجنان محمد علي باشا ، اذ كانت قد توجهت الى الحج عام ستة وستين والف ومائتين من الهجرة ، ولبت نداء ربها هناك . وقصدوا قبة السيدة آمنة بنت وهب والدة الرسول عليه الصلاة السلام وتقع قريبا من ضريح السيدة خديجة ، وزاروا ايضا قبتي ابي طالب عم النبي وعبد المطلب جده ، ثم عرجوا في طريقهم على قبر سيدنا عبدالله بن الزبير رضي الله عنه فوجدوه بدون قبة وكان قد هدمها الشريف عون الرفيق أمير مكة . وأراد الشيخ ابراهيم أن يختم الزيارة برؤية قبر أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، الذي أتى مكة للحج عام مائة وثمان وخمسين للهجرة ، وطلب من الحاج عمر والدليل ابن زيد أن يسهلا له ذلك الامر ، وكان ابن زيد لا يعرف موقع هذا القبر ، فامعن التفكر قليلا ثم التفت اليه يقول في لهجة تأكيد :

ـ أني أجهل مكان هذا القبر ياسيدي ، ولكن تمهل قليلا فسأسأل عنه شيخ المقابر . قال هذا وانطلق في السبيل الى الرجل ، بعد أن أشار الشيخ ابراهيم بالايجاب ، وغاب قليلا ثم رجع لهما يضحك أسفا وهو يقول :

ـ حقا انى أرجع من مهمتى كما يقولون « بخفى حنين » . فلقد سألت الرجل عما تبتغى فأجابنى بصدق أن قبر ابى جعفر موجود هنا فى المعلى ولكن لا أحد يعلم ضبط موقعه ، واخبرنى ان كثيرين من الحجاج والزوار يسألونه مرارا عن هذه المقبرة ، ويلحون عليه فى ضرورة دلالتهم عليها غير انه يتأسف لهم حيث ان لا احد يعرف مكانها . .

وتأسف الشيخ ابراهيم (الرجل الصالح الصادق العبادة) بدوره ، وتبعه بمثل ذلك الحاج عمر ، ووجدوا انهم قضوا مأربهم من المعلى فخرجوا منه يطلبون الصحراء ، وبعد هنيهة صاروا بها ، ووطدوا العزم على زيارة غار حراء وهو الغار الذى كان يتعبد فيه النبى ﷺ ، ويقع على قمة جبل النور وتطرق السرور الدينى الى قلب الشيخ ابراهيم عندما صار مع رفيقيه امامه فلم يلبث ان بكى بدموع حارة انهمرت على وجنتيه ولم يتمالك ان خر لله ساجدا ، واخذ يبتهل ويدعو الدعوات الصالحات . .

كانت الشمس قد ارتفعت فى فلكها ، وكان الوقت فى فصل الصيف الشديد القيظ ، وكانت الحرارة تبلغ اشدها عندما وصلوا امام (الكهف) ولكن بعد قليل اعتدل الجو وصار لطيفا كأنه (ربيع مصر الزاهى) وهب الهواء نسيما عليلا . . . . حقا ان لله فى حكمه شؤون .

وصار الشيخ ينادى بأسماء الله الحسنى ، ولم يمض طويلا حتى دب مثل ماحل بالشيخ فى نفس الحاج عمر الذى كان واقفا طول الوقت لايحرجوابا وكانت نظرة من ابن زيد فجأة الى الأعلا ، فرأى مشهداً عجيبا لم يرمثله طول حياته من قبل ، كان قد راى سحابة قد انفصلت عن كتلة كبيرة من الغيم ، واستقرت على ناصية المكان الذى وقفوا فيه ، ووقع ظلها على راس الشيخ ابراهيم .

ولم يكن ذلك فحسب ، بل راى ان السحابة قد انفرج وسطها عن ثقب صغير ، فوجدت اشعة الشمس لنفسها منه مسلكا ، فارسلت خيطا

رفيعا من خيوطها وقع على منتصف رأس الرجل . وحقق النظر كثيرا فرآها تدارت وكررت واستقرت فى مكانها برغم شدة الهواء الذى اخذ يهب تباعا ، ونظر الى كتاف الحاج عمر فرأى الشمس تظلله ، ولم ير شيئا مثلها رأى عند الشيخ ابراهيم ، فتأكد لديه ان ذلك الرجل هو احد من رضى الله عنهم فاتخذهم جنوده فى الارض ينشرون تعليمات كتابه الكريم ويعملون على تعميم لوائه الحق ودينه القيم .

ولاحظ عليه ظاهرة اخرى اشد غرابة من الاولى ، فانه كان يرى ذلك الشيخ كطفل حديث الولادة ، لاقدرة له على التحرك ، اذ كان عد له يد المعونة فى كل مايفتقر اليه مما لايحتاج الى كبير عناء ، ولكنه الآن بدا فى قوة كمن هو فى ريعان الشباب . لذلك ما كاد الرجل يفرغ من ابتهالاته لله حتى هجم على يده واخذ يقبلها تباعا ، وترك الشيخ له يده والاخرى لاينثني عن تقبيلها ، واخيرا سحبها منه ببطء ، ووقفوا يذرعون واجهة (الغار) بأعينهم ، وقدروا مساحته بنحو ثلاثة أمتار فى متر والصمت الرهيب يسود ماحواليه .

يا لله من رهبة هذا المكان الالهية ، كأنى به قد خلقت ووجدت به قبل أن ينشىء الله العالم ، وازدادت جلالا وقدرا حين هبط الوحي على النبي ﷺ يبلغه الرسالة الى الناس كافة ، فاهتز الجبل بأرجائه من تحته لهيبة من يحمله ، ولم يسكن الا عندما أشار له النبي بالهدوء .

وهناك عزم الشيخ ابراهيم على أداء فريضة الظهر أمام مدخل الكهف فقاموا ثلاثتهم وأخذوا يصلون جماعة فى ذلك المكان الذى تشرف بحلول أول عبادة صادقة لله تعالى عليه ، وبعد الانتهاء عرض عليهما ابن زيد أن يزوروا (منى) و (المزدلفة) بقية هذا اليوم . . ثم (جبل ثور) الذى به الغار الاول اختفى فيه رسول الله ﷺ مع صاحبه أبى بكر الصديق حين قصد الهجرة الى المدينة ، ثم مسجد بلال فى جبل أبى قبيس ، ومسجد قباء

أول مسجد أنشئ في الاسلام . وسر الشيخ ابراهيم لاقتراح (الدليل) ابن زيد ، وكاد يطير لفرط فرحه وسروره ، وكيف لا وقد نال ما كان يرجوه من الله طول عمره حتى يؤدي الركن الاخير من أركان الدين .

أما ما كان من أمر الحاج عمر فانه كان لا يبغي في نفسه من مناسك الحج هذه أداء الدين ، بل كانت لديه كأنها رحلة (جغرافية) شيقة يسلي بها نفسه ويمتع بها ناظريه ، وكان يكتم هذا الامر بطبيعة الحال عن أستاذه . . وقد كان يمالئه ويداهنه حتى لا يكف عنه تلك اليد السخية التي يمده بها ويغمره عليه من تلك النقود (والاندر) التي كانت تتقاطر عليه كالسيل وكان لا يحب في الشيخ ابراهيم سوى بسطه ظله عليه ، فكان يؤدي له ما يطلبه على أتم وجه وبطيبة خاطر ، ومكث حتى الآن في مثواه ثمانية عشر عاما قضاها في راحة وطمأنينة ، لا يهتم لأكل أو لمشرب ، ولا يفكر في اي شيء قط .

وقد كان يجله ويعظم شأنه ليس من وجهته الدينية ، بل فقط لتلك اليد التي يعيش من ورائها ، فيالله من رجل يلوح انه قد جبل على الكسل في البحث عن اسباب العيش ، وقد مدت به العزيمة عند ذلك الشيخ الكريم فأهمل نفسه الظاهرية ، واهتم لنفسه الذاتية الداخلية . .

واتفقوا جميعهم على زيارة المناسك الباقية المبعثرة في أرباض جبال مكة وصحرائها . وبعد أن أتموا ما يبغونه ضربوا خيامهم في بقعة نائية عن البلد لتنوم تلك الليلة ، وقد تطوع الحاج عمر في القيام بالحراسة مع ابن زيد بالمناوبة

الفصل الرابع

أهوال البادية

أشرقت الغزالة من خدرها ترسل خيوطها الذهبية على رؤوس الجبال والروابي ، ونهض معها الشيخ ابراهيم والحاج عمر من رقادهما ، وقام معهما

ابن زيد ، وصار يساعدها فى ترتيب الامتعة على متن الابل ، ثم ابتدأوا في القيام بالرحلة الشاقة على متن الجبال القفرة . .

وصارت الجمال تهودج بهم فى الطريق ، وقد توغلوا فى بطن القفار بعيدا ، وأخيراً أشرفوا على جبل الهدى وكان ذلك عند الغروب ، فنظر ابن زيد الدليل إلى الحاج عمر وغمزله بعينيه قائلا :

ـ هانحن على وشك مواجهة الصعاب . .

فرمقه الحاج عمر شذرا ، وأشار له بيده مؤنبا ، وقال له بلهجة شديدة :

ـ ساري صحابك تلك التي تزعمها ياصاح . ان كنت جبانا فاصمت .

فابتسم ابن زيد ابتسامة خبيثة ، وضحك الشيخ ابراهيم ضحكة خافتة وصاح بصوت ضعيف :

وكان جبل الهدى يقع فوق جبال (كرا) ، وفيه جنات كثيرة تجرى من تحتها الانهار ، فيها مايشتهون من أثمار وأزهار ، قطوفها دانية ، رياحها جارية . . .

وما كادوا ينزلون فيه حتى بهت وجه ابن زيد وتقلص جبينه ، ثم أسرع وترجل مطيته ، وأحنى رأسه ، ووضع أذنه على الارض كأنه يتسمع شيئا مجهولا ، واعتدل واقفا وأخذ يدقق النظر الى الفضاء تارة ، والى السماء أخرى ورمقهما بعين قلقه ، وهز رأسه كالمتأسف ، ثم صاح كمن هزم :

ـ انى أتأسف ياسيداى ، لأنى مضطر أن أمنعكما من التقدم أكثر من ذلك الآن خطوة واحدة . .

فاسرع الحاج عمر وقاطعه بلهجة قاسية شديدة :

ـ ولماذا يكون ذلك . . هل هناك مانع جوهرى يقضى بايقافنا .

وشبك ابن زيد يديه على صدره وهز رأسه مرة أخرى ، ثم قال متمهلا :

ـ نعم . هناك مانع مهم يوجب عدم التقدم خطوة واحدة ، والا فالهلاك المحتم ينتظرنا كلنا .

فعارض الحاج عمر فى ذلك الامر بشدة وهز كتفيه قائلا :

ــ سنواصل المسير مهما قابلنا من العقبات ، فكن رجلا أبيا

فامتقع وجه ابن زيد وصار كالاموات ، وصاح يرجوه .

ــ ربك ياسيدى تمعن فى الامر . ان عواصف صحراوية شديدة جامحة تهب على هـذه الأنحاء فى فترات متباينة ، وفى تلك الآونات تنتهز الوحوش الفرصة وتهجم على المار ، ولذلك أرى أنه من المستحسن أن نضرب خيامنا فى هذا المكان دون غيره ، حتى ننجو من شر ما ينتظرنا .

وشدد الحاج عمر فى أمره ، وهو لا يريد التوانى فى المسير والتأخر فيه ، قائلا بعنف :

ــ لست أبغى البقاء هنا لحظة واحـدة . لاتوقف الحال ، هيا بنا الى الامام . وحاول ابن زيد أن يفوز منه بالانتظار ، غير أن ذلك كان دون خرط القتاد ، فصاح وهو يقرض بأنيابه يحرق الارم غيظا من ذلك المدعى الذى يسوقه الى حتفه :

ــ ساعتئذ أكون خاليا من المسؤولية ، ولا لوم على ولا تأنيب بعد ذلك

وتدخل الشيخ ابراهيم فى الأمر ، فنظر الى الحاج عمر نظرة رجاء وقال له بصوت خفيض مضطرب النبرات :

ــ هل لك ياعزيزى عمر ان تنقاد له ؟ . . انه لعلى معرفـة وخبرة من هـذا المكان منا . . هو دليل الصحراء ورجلها ، فوجوده معنا الآن بمثابة سكان (السفينة) لنا يوجهنا كيف شاء .

ــ ياللعجب ! . . إن السماء صافية والجو رائق ، فمم تحدث اذن عواصف وأخطار .

قال هذا وصمت قليلا ، ثم اندفع يقول فى عزم شديد :

ــ هيا . . هيا . لا أقبل التوانى فى المسير . أريد الاندفاع بهمة ونشاط .

وهكذا نفذ الرجل القوى الارادة عزيمته ، فانطلقوا لساعتهم فى سير

حثيث ، ومر على ذلك نصف ساعة ولاح الغبار على بعد ، ثم انكشف عن عاصفة هوجاء أخذت تحمل الرمال إلى أعينهم وأعين الابل مما جعلها تشرد قليلا فى الطريق ، ولم يردها ابن زيد إلى مكانها الاول .

وصار الهواء الشديد يلفح أرديتهم ، ونظر الشيخ ابراهيم الى الحاج عمر نظرة قاسية ، وتحول الي مبدأ العاصفة وأخذ يحدق فيها بامعان ثم انثنى اليه وقال له فى مرارة وألم :

— لم لم تركن الى الدليل ؟ لقد أخبرتك أنه أدرى بشؤون هذه النواحى من أى غيره . .

وأطرق الرجل أسفا وقد خجل لسوء تصرفه وضحك ابن زيد منه ضحكة تهكمية وقال :

— انى لم أك أبغ من المكان الاول مستقرا الا لانه يعزل عن الضوارى والزواحف ، وتصيبه العاصفة قليلا . أما هذا فانها تصب عليه جامات غضبها الي أقصى حد .

وما أن أتم كلامه حتى هدر الجو يسحب عديدة من الرمال ، تذروها الرياح فى كل الارجاء المحيطة ، وأخذت الاشجار المتفرعه على الجانبين تتمايل ، والاغصان ببعضها تتضارب ، وبلغت العاصفة أشدها وبذل ابن زيد جهده فى قمع الابل ، وأشار الي الحاج عمر أن يتصاعله ويفعل كما يأمره منذ تلك الآونة . وأمره أن يدق المضارب معه وسرعان ما أتما ذلك بهمة كبيرة رغم معاكسة الزوبعة لهما ، وليت الامر كان قاصرا على ثورة الطبيعة عليهما فحسب ، بل ثارت الوحوش المفترسة ، فارتفع عواء الذئاب عاليا ، واختلط مع أزيز العاصفة الرهيب .

وألفى ابن زيد أنهم قد أمسوا فى أشد المآزق حروجة ، فأسرع الى الحاج عمر وقال له

ـ عليك بسلاحك الآن ، وسأخرج لأحتطب قليلا لنوقد نيرانا

تمنع عنا شر الضواري .

قال هـذا وتناول خنجره الحاد من منطقته ثم سار تواً ، واختفى متغلغـلا بين الاشجار الكثيرة ، ووقف الحاج عمر لحراسة مقرهم ، وبينما كان يجيل الطرف فى جهة تتسدل عليها الاشجار عند حد البصر اذ اخذ اهتمامه بريقا مزدوجا ينبعث من عينين لامعتين ، فاسرع الى داخل المضرب وتناول غدارة حشاها بالرصاص ثم خرج الى مكانه .

وكان البريق يقترب جهته رويداً رويدا ، وكان الليل قد أوشك أن يرخى سدوله ، والظلام يزحف شيئا فشيئا يلعق بلسانه ضوء النهار الآفل ، وانتظر قليلا حتى صار ذلك البريق على قيـد خطوات منه وأمعن النظر فيه مدققا فميزه شبح فهد جبلى ممتد الجسم كاسر الخلقة فامهله قليلا حـتى اقترب كثيرا ثم سدد اليه غدارته وضغط عليها مرة واحدة ، فانطلق منها حشوها وقـد امتزج بهدير كهزيم الرعد صدر من الوحش الهائل .

ولم تكد تمر فترة وجيزة على سكون ذلك الصوت حتى أخـذت تتجاوب أصداء الجو أصوات تزهائجة ، وصار المكان يضج بها كيوم غائم ضروس تتزلزل الارض فيه تحت انفجار القنابل ، وهلع الحاج عمر وجزع رعبا الا انه طرح عنه اعباء الوهم والخوف ، واستمد العزيمة من نفسه الجامحة ، وصوب فوهة الموت الي جهة الزئير وانتظر قليـلا حتى رأى اشباح بضعة وحوش تأخذ طريقها نحوه ، وعينى كل منهـا تلمع ببريق يكاد يخطف الابصار ، وهى تتحرك فى كل جهة .

واطلق رصاصة بين بريق عينين ، وارتجت اثرها الارجاء بزئير حاد وصار الحاج عمر يطلق الرصاص ويصيب الهدف كل مرة ، واخيرا تراجعت الوحوش الى حيث جاءت ، وما كاد الجو يهدأ قليلا حتى اخذ سمعه انين خافت صدر من الجهة التى سار فيها ابن زيد ، فاسرع الخطا سائرا

نحوه ، وما كاد يتقدم قليلا حتى وجد البدوى يعرج بضعف وملابسه ممزقة ورأى ماالتطبه فوق ظهره يكاد ينقضه ، فأخذ بيده وساعده على التقدم من المضارب .

وخرج الشيخ ابراهيم في تلك اللحظة ليرى ماذا يفعل الحاج عمر اذ ربما يكون في حاجة اليه ، وكانت الريح قاسية شديدة ، فلفحت رداءه وأطارته على مسافة قريبة من دغلة .

وأسرع الى الرداء يرده ، وبينما هوراجع في سبيله الى المضرب اذ التف على قدمه شيء لين ، فصرخ صرخة رائعة تخللت أزات الريح ، وسقط على الارض فاقد الرشد .

وهرول الحاج عمر نحوه وحمله الى داخل مضربه ، وأتى ابن زيد منهوك القوى يستطلع ماحدث لذلك الشيخ الطيب القلب ، وأفاق هذا من اغمائه سريعا ، وقال للحاج عمر بصوت خافت يتخلله الارتباك :

ـ هاقد حان موتى ياعزيزى عمر ، . لقد عضني أفعى فى طريق . .

وما كاد يسمع مقال سيده حتى عمد الى خنجر معه ، وبضع به مكان العض ، وصار يمتص الدم بفيه ويمجه على الارض ، وأسرع ابن زيد الى زجاجة يحتفظ بها ، وتناول منهادواء عربيا ، ودهن به مكان الاصابة وحمله الاثنان الى مرقده فسقط سريعاً فى سبات عميق .

وأقام الرجلان بأمر المراقبة ، ولاحظ الحاج عمر على ابن زيد التعب ، فسأله أمره ، فاجابه :

ـ أثناء رجوعى من التحطيب هجم على ذئب ضار ، فألقيت عني حمل واستللت خنجرى ، ووقع بيني وبينه معركة هائلة دارت الدائرة فيها عليه ، ولكني دفعت ثمن انتصارى فقد قوتى وتجريح جسمى .

فضحك الحاج عمر ضحكة خافتة ، وقال :

ـ هنيئا لك بالنجاة . ولاتهتم لما نالك فستسترجع قواك عما قليل .

الفصل الخامس

ولى العهد

ولى الظلام وقد ولت معه ثورة الطبيعة ، فاصبحت الشمس مشرقة والجو صافي الاديم ، والحركة ساكنة ، وتحسنت حال الشيخ ابراهيم قليلا ، واسترجع ابن زيد مافقده من قواه أثناء مصارعته الذئب بالامس ، وقام الحاج عمر باعداد طعام الافطار .

وبالرغم من الضعف الذى مازال ساكنا فى جسم الشيخ ، فانه أصر على استمرار السفر سريعا ليعالج نفسه عند أحد أطباء الاعراب فى الطائف .

ووصلوا الى الطائف وقد عاينوا الامرين فى أتمام سفرهم ، وكان ذلك قبيل الظهيرة أى بعد مضى ثلاث ساعات من رحيلهم من المسجد ، وزاروا قبة الطاهر رضى الله عنه ، واستقروا عند مدفن الطيب (ابن النبى ﷺ) ، ولم ينسوا زيارة قبر سيدنا عبدالله بن العباس .

صاروا أخيراً فى الطائف . . . تلك البلدة الجميلة التى تنم عن شكل وردة فى الصحراء . تلك البلدة التى كان بها معبد اللات والعزى (١) فى زمن الجاهلية ، وكانت تدين بهما ثقيف وغيرها من القبائل المجاورة للطائف وقد ذهب النبى ﷺ الى تلك القبيلة فى أول النبوة ، وطلب منهم نصرته فابوا عليه ذلك . .

واستحضر ابن زيد طبيبا أعرابيا مشهوراً بجودة مهنته ، ولما فحص الشيخ ابراهيم استبان خطورة حاله ، فكتم الامر فى نفسه ، وقال للشيخ مداهنا

ـ ماعليك من بأس . ان مرضك لايحتاج الا للراحة والهدوء .

وفى أثناء خروجه مال على الحاج عمر ، وقال له بهمس وفى أسف شديد :

ـ اعلم ياسيدى أن حاله فى أشد الخطورة ، ويسوؤنى أن أعرفك

---

(١) من المعبودات التى كان العرب يعبدونها قبل الاسلام .

أن أعرفك أن لاحيلة لدى لانقاذه من مخالب الموت ، ولكن خذ هذه ودعه يتناول منها ثلاثا يوميا ، ربما يخفف عنه ذلك وطأة المرض .

قال هذا وأعطاه زجاجة تحوى شيئا من الدواء الكروى المبلور ، وبعد أن خرج انثنى الحاج عمر الى الشيخ ابراهيم ، وما كاد هذا يشعر بوجوه حتى التفت اليه وقال له بضعف :

ـ عزيزى عمر . . انى أريد الرجوع الى مكة غدا . .

فارتعب الرجل لدى سماعه تلك العبارة ، ونظر الى سيده نظرة اشفاق وحنان وقال :

ـ مهلا . . مهلا ! انك ضعيف وفى حاجة الى الراحة .

فتمالك الشيخ ابراهيم جهده وصاح قائلا :

ـ كلا . لست فى حاجة الى البقاء هنا بعد . انى أشعر بقرب أيامى ، وأبتغى أن أزور (المدينة المنورة) قبل أن يحيل الموت بينى وبين ذلك .

وحاول الحاج عمر أن يثنيه عن عزمه ، غير أن اصرار الآخر كان أكيداً فاذعن له . وركن الشيخ ابراهيم ، الى الراحة بصحبة ابن زيد وخرج الحاج عمر على أحد الابل منفردا يطلب التروض حول الطائف . واقترب من جهة صحراوية نائية ، ثم صعد على رابية عالية تشرف على بيداء شاسعة ممتدة الاطراف وينطبق فيها الافق بعيداً على أقاليم موحشة خالية ، وتذكر ماحدث لهم على (الهدى) ـ فارتجف جسده ودبت فى بدنه القشعريرة ، وكاد يلوى عنان جمله يطلب الرجوع ، غير أن شيئا صغيرا مطروحا فى قلب الصحراء لفت نظره ، فتعجب أيما عجب عند ماميزه مخلوقا يتنسم الحياة .

وأمعن النظر جيدا ، فرأى أنه امرأة ترتدى مئزراً مصريا تسير فريدة بين أمواج الصحراء ، باذيال متعثرة وقد أشرفت على الهلاك ، وكادت تسقط خائرة فاقدة القوى غير أنه أسرع وجهتها بركبه ، وترجل

عن جمله ، وتناولها بين ذراعيه ، وصار يرطب الماء على جبينها ويستحلبه لها في فمها حتى أفاقت من إغمائها . وأجفلت مذعورة من ذلك الغريب الذى لاعهد به لها حالما رأته ، وتمالكت قوتها المفقودة ، ونظرت اليه نظرة شذراء ، ورأت ملابسه المصرية ، فابتسمت قليلا ، ولكنها كتمت ماجاش بخاطرها وصاحت باللغة الريفية المصرية :

ـ ياللعجب ! . . اني أمام مواطن من مصر العزيزة فى اقليم قفر نائى . .

ونظر اليها الحاج عمر ، وفحصها ، فالفاها امرأة تناهز الثلاثين من سنى حياتها ، ذات وجه نضير ، تترقرق فيه قوة الشباب ، وتسير فى محياها مياه الفتوة ، وقد اكسبتها شحوبة وجهها فتنة وجمالا ، وغلبه ضوء جاذبيتها فغض طرفه أسفا ، وأخيراً تمالك روعه ونظر إليها قائلا :

ـ يدهشنى أن أراك وحيدة فى هذا المكان المنعزل .

فنظرت اليه من وراء أهدابها الطويلة الساحرة ، وقالت له :

ـ لقد كنت مع زوجى وبضع حجاج آخرين في (شبرا) (١) ، وخرجنا نقصد مكة وما كدنا نضرب فى الصحراء حتى خرجت علينا احدى فرق قبيلة (اللهبة) المشهورة بالغدر والخيانة ، فدافع عنا من يصحبنا من الاعراب ولكن كان ذلك دون جدوى فانها استولت على كل ما كان معنا من المؤونة ، وتفرقنا أيدى سبا فى البادية ولسوء حظى لم يصحبنى أحد بل نجا كل بنفسه ، حتى زوجى تركنى وأسرع راكنا الى الفرار ، وكدت ألقى حتفى لولم يرسلك الله الى نجدتى .

ودهش الحاج عمر لدى سماعه قولها ، ونظر الى عرض الصحراء قائلا :

ـ ومنذ كم حدث ذلك الامر ؟

فتوجست المرأة من لفتته أنه يود امامطاردة القبيلة ، أولم شعث القافلة

(١) شبرا هي أشهر مصيف فى الطائف أنشاها الشريف عبد الله باشا وسماها باسم شبرا ضاحية القاهرة .

فصاحت تقول هلوعة :

— كلا . . كلا . لن يخطر ببالك الذهاب ، لقد أصبحوا بعيداً في بطن الصحراء . . فضلاً عن أن الموقعة قد وقعت في ضحى هذا اليوم .

وقطع عن الحاج عمر ما كان يفكر فيه عند سماعه ذلك منها ، ونظر اليها قائلا :

— ومن أى بلد في مصر أنت ؟

ونظرت اليه شذرا مرة أخرى من عينيها السوداوين ، وقالت :

— من السنبلاوين أحد أعمال مديرية الدقهلية .

فصرخ الرجل عجبا ، وقد امتزج صياحه بعاطفة الفرح ، وقال لها مشدوها :

ـ يالحسن الاتفاق ! نحن أيضا من السنبلاوين . . أنا والشيخ ابراهيم

فبدرت من المرأة صيحة خفيفة مقرونة بالدهشة وقالت :

ـ الشيخ ابراهيم ولى الله المشهور ؟ . . يالاعجب ويالمحاسن الصدف ! .

ولم تتمالك من أن هجمت عليه وأمسكت يديه وصاحت :

ـ إذن أنا في أمن من الهلاك بصحبة مواطنى الناسكين حتى لقاء زوجى فى مكة .

وارتعد الحاج عمر تلقاء لمس المرأة له ، وسرى فى جسمه ذلك التيار الجارف ، وطرق قلبه ذلك السيل الذى يدق قلب من حرم من متع المرأة ، وأخذ صدره يخفق بشدة ، ونظر اليها فجذبته مغناطيسية عينيها وسحرها القاهر ، ورأى نفسه وحيداً معها فى مكان قفر لا رقيب عليه ولا محاسب وحدثه الشيطان بأمر ، غير أنه أسرع وكتم عاطفته ، وصاح :

ـ نعم ياسيدتى . . نعم ، . والشيخ ابراهيم على مقربة من هنا .

فشددت القبض على يديه ، فلمعت عيناه أثر ذلك ببريق غريب ، وأجهد نفسه مرة أخرى فى كبح جماحه احتراما للأرجاء المقدسة ، أو قل لأن الوقت لم يحن ، والفرصة مازالت بعيدة ، وقالت له :

ـ وكيف حال سيدى الشيخ ابراهيم ؟

فجفل قليلا ، وقال لها بصوت خفيض يختلط الأسف بنبراته :

ـ انه فى حال يرثى لها من المرض ياسيدتى . . وقد عرفني الطبيب أنه على كثب من حافة حياته . .

فارتعدت أوصالها لما سمعت ، ثم قالت متلهفة مرتاعة :

ـ ياللهول ! هلا تسرع بى اليه ياسيدى كى أراه ! . .

وسحبت يداها منه ، وسرعان ماحملها معه تل الجمل ، وبعد قليل كانا بحضرة الشيخ ابراهيم الذى كان مازال راقداً في فراشه ، واعتدل فى مرقده ، وسمع المرأة تقول له بلهجة الثقة :

ـ إني فاطمة إحدى مواطنيكم ، هنا فى الاقطار المقدسة سويا . . كيف حالك الآن ؟

فنظر اليها الرجل بعين أوشك الضعف أن يغلقها ، ثم قال فى وهن بين :

ـ بارك الله فى حجك أيتها السيدة ، وغمرك بعنايته ورعايته أينما سرت ، ورحمك برحمته . . قال هذا وباركها بيده ، ودعا لها من الله ماتيسر من خير الدعاء ، واقترب منه الحاج عمر ، وأخذ يقص عليه كل ماحدث لها ، فتعجب الشيخ أيما عجب ، وأبدى للرجل أن يستعد للسفر غدا . .

وفى الصباح قامت قافلة من الطائف تقصد مكة ، مكونة من الحاج عمر ، والشيخ ابراهيم ، وفاطمه المصرية ، وابن زيد (الدليل الاعرابى الأمين) . وكانت صحة الشيخ ابراهيم قد بلغت السوأى ، وما كادوا يصلوا الى منتصف الطريق حتى أشار لهم بالتمهل ، فاسرع اليه الحاج عمر ، فوجده فى حالة النزع ، وقال له بصوت خافت :

ـ هاانت الولي خلفى في (العهد) . اذهب الى السنبلاوين واتخذ مكانى وسر في طريقى . وليباركك الله ، وما كاد يبارك الحاج عمر على مرأى من فاطمة ، حتى سقط رأسه الى الخلف وقد اسلم الروح الى

خالقها ، وصار جثة هامدة ، فذرف عمر عليه الدموع الحارة ، وصلى عليه صلاة الجنازة ، ودفنه فى بقعة مقدسة فى البادية . .

الفصل السادس

الميراث

السنبلاوين بلدة ريفية لا بأس بها إذا قارنا بينها وبين القرى المجاورة وهي من اعمال مديرية الدقهلية تقع فى مرج اخضر يحيط بها كالزبرجدة الجميلة ، تصفو نفوس سكانها ويسود بينهم الوفاق والتسامح وحب الخير وطبعت نفوسهم على الكرم — كما اشتهر ذلك عن المصريين اجمع — وقد عرف عنهم الجد فى الاعمال ، والتسابق إلى ماينقى انفسهم من ادران الحياة الفانية . فصاروا يمجدون كل من يكون بينهم على ولاية من الله (شأن سذج العوام) ويخضعون له تبركاً بنفسه الطاهرة ، وتقربا وزلفى الى الله عز وجل .

وفي صباح اليوم التالى لقدوم الحجاج من الاقطار الحجازية كنت ترى جمعاً من اهل البلدة يحتشدون فى طرقاتها زرافاتا ووحدانا يقصدون الحجيج ليهنئوهم على سلامة اوبتهم ، وتوجه جملة اشخاص الى مأوى الشيخ ابراهيم ولكنهم دهشوا جدا عند مالم يروه فى منزله ، بل خرج اليهم الحاج عمر ، والدموع الحارة تجرى منهمرة على وجنتيه ، وتلوح على ملامحه علائم الحزن والاسى ، ولما راى الناس وما بدا عليهم من الجمود كفكف عبراته بمنديل مجال بالسواد وغص بريقه ، ثم اشار لهم ان يصغوا ، وقال لهم :

— الصفح أيها الرجال ، لقد أردت ألا أقلق عليكم مضجع راحتكم بانبائكم ذلك الخبر السيء الوقع . لقد أردت ألا أفجعكم فى شيخنا الكبير ولى الله ، ولكن هى الظروف التى تضطرنى لان أسقط كلماتى الآن على

رؤوسكم موقع الصاعقة . .

وما أن انتهى من كلامه حتى ضج المكان بالبكاء ، وأخذوا يجهشون بدمع هتون ، واشتركوا كلهم فيما بينهم بالعويل ، ولكن الحاج عمر أشار لهم بأخذ الهدوء قائلا :

ـ يسوؤني أيها القوم أن أعرفكم أن هذا الوقت ماهو بوقت البكاء بل حري بكم أن تطلبوا له الرحمة والغفران من الله سبحانه وتعالى ، حتى تسر روحه وتهنأ في مرقدها لكم . .

وما كاد يتم كلامه حتى ضج المكان بأصوات الدعاء ، عالية وخافته بين ابتهال وبين استرحام واستغفار تصدر من قلوبهم بصفاء واخلاص وعقيدة صادقة في نية سليمة .

يالله العجب من الحاج عمر ! . . لم يذع موت الشيخ ابراهيم بين عشيرته وقدومه ! بل أمر المرأة (فاطمة) ألا تخبر أحدا شيئا مما حدث حتى يأذن لها ، فاطاعته صاغرة ، ولا سيما لما رات الشيخ يثبته مكانه ، فوثقت بهذا الرجل الجديد الذي ورث التولية عن رجل حل به جزء من النبوءة ، وهي بثقتها امرأة ، والمرأة لاعقل لها ، تصدق كل مايتزل على الافئدة صدقا صدقا ، وان كذبا فصدقا .

وقد كان الحاج عمر يحيك شراك بسياسة خفية لاعهد لاحد بها ، كانت سياسة لحمها الدهاء وسداها المكر ، ولاحت له أمور طارئة ، فاذرف شيئا من الدموع بطريقة قل أنها (ميكانيكية) إذ لم تكن بدافع الحيلة وامتلك نفسه رويدا رويدا ، ثم كفكف دموعه ونظر إلى القوم قائلا بلهجة مستطلعة :

ـ حقا إن انتقاله بجوار الخالق جل وعلا أمر نزل على كل سامع بالالم والهول ، فيجب علينا الان ان ننصب المزن حدادا على فقيدنا الراحل .

وما ان سمعه القوم ينوه برأيه حتى قال واحد منهم بالعزم والاهتمام :

ـ نحن إذن نود أن نقيم فسطاطا نحيى فيه ليلة نذكر فيها شيخنا .

فأحنى الحاج عمر رأسه بالايجاب ، وقال يبسم قليلا : ـ أجل . . أحيوا ذكراه . أقيموا حفلا ساهرا نتسابق فيه بآى الذكر الحكيم لروحه الطاهرة .

واستبق الرجال الى الشارع ، وسرعان ما أحضرت الاقمشة والاعمدة والألوية وبعد لحظات قليلة أقيم الفسطاط بهمة لايعرف اليها الملل ، وبنشاط لايتطرق اليه الكلال . وحضر مندوب من قبل أولى الامر ليحصر تركة الشيخ ابراهيم حتى تضم الى الاملاك الاميرية لمناسبة عدم وجود أهل له أو أقارب ، واعترض الحاج عمر على ذلك ، وأخبره أنه وريثه الوحيد ، ثم قدم اليه وثيقة من المعتمد المصرى فى الحجاز تثبت شهادة ابن زيد وفاطمة . .

واستحضر الحاج عمر المرأة فاطمة ليكون الاشهاد أوقع ، واستنطقها المندوب الأمر فأدلت بكل مارأت وكتب كل مافاهت به فى وثيقة خاصة ثم استبصمها تحت قولها وانطلق الى شؤونه .

وألقت فاطمة نظرتها على البيت فوجدته ذا نسق حديث . فخم البناء اذا قورن الى ماحوله ، وقد حوى الى جدرانه الشيء الكثير من الاثاث المتوسط ، وخلفه (طامبة) تسحب ماءها من بئر قريبة تلقيه فى خزان مصنوع من الصاج ، ومد المنزل به فى أنابيب ممتدة على الجدران ، ويحمى هذا المكان سور قليل الارتفاع ، غرس أعلاه زجاج مفتت وبضع أسلاك شائكة حتى لايهاجم بأحد الطوارق . ولم يرث الحاج عمر البيت فحسب ، بل احتاز بضع أراض ريفية خارج البلدة يمكن أن يستدر منها رزقه الوفير فضلا عن أرباحه التى يتصيدها من العامة السذج .

وتحولت فاطمة الى النساء ، وركنت اليهن تحدثهن عن لحظات الشيخ ابراهيم الاخيرة ، وكيف لاقى ربه باسما ، فملن اليها كلهن ، وأخذن يستزدنها من حديثها الظريف . وبعد قليل تم عقد اجتماع جل أهل البلدة والقرى المجاورة من رجال ونساء وأولاد ، وانفرد النسوة فى مكان خصص لهن ، ورأى الحاج عمر ذلك الخضم البشرى الزاخر أمام منزله ، وكلهم خاضعون تحت أمره ،

obeikandi.com

وأصبحوا في دائرة نفوذه ، وصار لهم الحاكم المطلق التصرف في شؤونهم بعد موت الشيخ ابراهيم . ولقد سر — بطبيعة الحال — من تلك المنزلة التي أصابها دون أن يقصدها ، فاشرق وجهه ببسمة خفية ، ورأى أنه في مركز يغدق عليه الارزاق دون ان يحرك لها ساكنا فأمل خيرا ، ووقف منهم موقف الحاكم الا ان الحاكم لا سطوة له الى الحد الذي هو فيه . وما ان رأوه ظهر امامهم حتى تدافعوا عنا كبهم لضالا يبغون التقدم منه والتبارك ببركته قربانا من الله .

زعما باطلا هو ذلك الذي يزعمه أولئك السذج ، اذ يذهبون ان (الأولياء) هم الطريق الذي يصلون به الى الله تعالى حتى يغفر لهم خطاياهم ، ويرحمهم ، ويغمرهم بعفوه . وامثالهم في الدنيا كثير ، ولا يوجد ذلك في الدين الاسلامي فحسب : بل ايضا لدى المسيحيين واليهود حتى ديني بوذا والبراهمة والديانات الوثنية الأخرى تطوى مثل ذلك : فعقليتهم السخيفة تسول لهم اتخاذ رجل بشري مثلهم لا فرق بينه وبينهم للتقرب من الذات جل جلاله او من المعبود الذي يعبدونه . . ليس هناك سبيل بين الانسان وربه سوى العبادة ، فمن احلها من نفسه اولا فقد اقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، كما نوه بذلك رسول الله ﷺ ، اما طبقة (الاولياء والمشايخ والقديسين) فليسوا طريق الله لعبد يحصلون له على الرحمة منه ، ومن عرض بذلك منهم فما هو الا دجال يحيك احبولته حول من يصور له ذلك يبغي منه عطية ، وما ذلك القوم الا احلاس الخسة والنذالة ، واعلام الكذب والافتراء محبتهم كيد ، وصحبتهم صيد ، ودعوتهم لمرماهم شرك ومكيدة .

نحن لا ننكر منهم بذلك حق تلك الفئة الطاهرة الناسكة المقربة إلى الله ، الألي لا تبغي سوى السكون إلى العبادة والانقطاع عن الحياة ومباهجها وزيناتها لا يطلبون إلا ما يتبلغون به فقط عونا على العيش .

وأشار الحاج عمر للقوم فكفوا عن تقدمهم واتخذوا أمكنتهم وصاحو كلهم بصوت واحد تدفق مع الرياح إلى أذنيه عاليا ، يبايعونه على الأولياء مكان الشيخ ابراهيم سواه . ودخل الجذل إلى نفسه ، ولكنه كتم عاطفته ، وتذكر مولاه في تلك الآونة فتصنع الاسف ، وبدا عليه الحزن والألم ، وطفرت من

عينيه الدموع ، ولم يتمالك الا أن تقدم منهم ، وأشار لهم بالهدوء ، فصمتوا حتى بان كأن على رؤوسهم الطير وارتجل فيهم قوله بنبرات خلابة أسرت حواسهم :

ـ أيها الناس ، صه صه ، ان لي عليكم حق الولاية وحرمة الموعظة ، لا يتهمني الا من عصى ربه . مات شيخنا بين ذراعاي ، فأنا ولي عهده على هذه البلدة مكانه أخلفني ، وعلى تركاته ائتمني . . لا ريب أنكم تشعرون كما أشعر أنا بذلك الفراغ الذي أحدثه رحيله عنا ، ويشهد الله أني بالهتون باكيه الى يوم الاقيه فيه ، حتى أؤدي بعض مالي من الواجب نحوه .

ياقومي . ان التفاني في العبادة ليس وحده يضمن لكم حسن الختام بل هناك الطريق الى الله ، هناك الطريق الى تنقية الأذلام الماضية والغفران عنها ، ويكون ذلك من (خليفة) شيخكم الراحل . .

ولي كلمة أحب أن أختم بها مقالي ، وهي ألا اذكروا الفقيد في صلواتكم وابتغوا له الغفران والمرحمة من الله سبحانه وتعالى ، وابتهلوا لروحه وادعوا لأنفسكم وذوي قرباكم . واسلكوا سبيل الصدق في القول . والاخلاص في العمل ، تنجحوا في حياتكم ، فكل من سار على الدرب وصل ، وفي أي يوم تاخذكم في أمركم شائبة فاني هناك خدمتكم أضع نفسي ، ولست أريد غير ثقتكم : ثقتكم العمياء ، ولترون مايقدره الله بعد ، انه هو القدير العليم .

وما ان اتم كلامه حتى ارتفع صوت الحاضرين ابتهالا لله بالمغفرة للفقيد ودعاء للحاج عمر ، وقد اعجبوا به ، وبسلاسة الفاظه . ومتانة عباراته الحكيمة ، فازدادت ثقتهم به في قلوبهم عن ذي قبل .

وشاهدوه يتقدم منهم ويباركهم بيده شخصا شخصا . ويدعو لهم بالنجاح في معترك حياتهم ، وهم مستبشرين مغتبطين لتولي الحاج عمر (الولاية) مكان الشيخ ابراهيم ، فحمدوا ربهم أن لم يتولى ذو بهتان عليهم .

الفصل السابع ـ القوس قزح المخنوق

انقضت حفلة الحداد ، وأقفر البيت على وارثه ، فأخلد الى غرفة جانبية وأخذ يفكر في أمره : لقد صبر ثماني عشرة عاما في خدمة الشيخ ابراهيم ، وكثيرا ماتطرق الى نفسه الملل من تلك العيشة الهادئة التي لا طائل تحتها ،

ولكنه كان يذعن عند موالاة الرجل له بأحاديث لطيفة ، وأمور طريفة .

وقد حل عليه وهو لا يملك شروى نقير ، وها قد آل اليه كل ما كان الشيخ يملكه ، وعند ماجال برأسه هذا الخاطر ابتسم سرورا ، وسرعان ماأتت على دموعه — التي كان يذرفها أمام الناس منذ حين — سحابة صيف مالبث أن أتي عليها لسان الحرارة ، فانقشعت عن أباهيج وأفاريح .

وطرق قلبه في تلكم اللحظات ذلك العامل الجنسي الذى حرم منه طويلا ، فاقلق عليه هذا الأمر مضجع راحته وسولت له نفسه أمورا سرعان ما أبعدها عن فكره لبعدها عن حكم المألوف .

ودارت الشمس في فلكها مرارا قليلة حل بعدها فصل الشتاء ببرده القارس وانتشرت السحب في كل مكان كتلا كتلا ، كالأطواد سابحة على متن الريح ، محملة بماء الأمطار . وصارت تفد من كل حدب وصوب والهواء يحركها بقدرته تعالى ، وما كادت تحتل جو البلدة حتى أنت تحت ثقلها فابتدأ سقوط الامطار الهاطلة ينساب على شوارع المدينة وأسطح منازلها . .

وأقفرت الشوارع من المارة ، وأغلقت المتاجر بعد أن باع البدالون كميات كثيرة مما لديهم من الفحم للناس ، للانزواء عن البرد وطلبا في الدفء والحمية .

ولمعت الارض بما فوقها من الماء ، وسكنت الأصوات ، وهدأت البلدة ، وخيم عليها صفير السكون البشرى ، ولم يبق الا ثورة الطبيعة من بروق وامضة الى رعود قاصفة . . وبعد فترة وجيزة تحركت أشباح في بضعة بيوت متقاربة ، وفتحت الابواب ، وخرجت الى الشوارع تسير في ظلال الجدران تحتمى بها من المياه الدافقة : لقد كانت أشخاصا تذكروا الحاج عمر في تلك الآونة القريرة فعز عليهم أن ينعموا بالدفء وحدهم بينما هو في رعشة الشتاء يعاني البرودة وأهوالها تحت غطائه الرطب ، فحملوا اليه : كل في غير علم بنية الآخرين : فحما يأنس الدفء منه . وطرقوا بابه فخرج اليهم باسما يفرك راحتيه جذلا وحبورا ، وتعنوا حاله فالفوه كالمنتصب من القيظ ، لاتأثير عليه من الحال الجوية ، وتقدموا منه فما ان استبان مامعهم حتى انتجذهم سرورا .

وأشار لهم بوضع عطياتهم على اريكة بالية في الفناء المسقف ، وخرجوا

وهم واثقين عن مقدرة الرجل الروحية ، التي عهدها من استاذه ، ودخل بعد ان شيعهم بنظرة خفية قل انها تنطوي على معاني الازدراء والتهكم .

وانقشعت السماء عن سحبها ، وصفا الجو زاهيا ، وخرج الصبيان والغلمان في الصباح الى الشوارع يتلمسون طرقا بين الاوحال إلى بيوتهم وما أن حان وقت العصر حتى كانت الشمس قد أتت على بعض ما في سبيل البلدة من ماء الأمس .

ودهش الأهلون لما رأوا ان الحاج عمر ينطلق في سبيله بلا وعي ، يرتل هامساً الأسماء الحسنى ، فتبعه بضعة من القوم صاروا يتكاثرون كلما طال بهم السير ، وبعد قليل رأوا أنفسهم خلف الرجل في ظاهر البلدة وقد ضربت الحقول النضيرة أمامهم نطاقها على امتداد الأفق .

ونظروا إلى الرجل ، فألفوه يتقدم من مصلى صغير أقيم على شاطئ ترعة جارية ، وأقام فيها فرض وقته ، وقد ائتمه كثير من الاهلين .

وما كاد يخرج من المصلى حتى تقلص وجهه بدافع خفي ، ونظر الى السحاب ولم يتقدم في سيره كثيرا حتى رآه الحشد وقد رفع يديه نحو السماء . وخر لوقته ساجدا على أديم الارض ، صامتا لا ينبث ببنت شفة خاشعا ، بدموع تنهمر سيلا على وجنتيه . . وعجب الناس من أمره جدا ، وتساءلوا عن ماهية تلك العبادة التي صادفته في نفسه بعد الفراغ من أداء الفرض ، وحاروا في ذلك أيما حيرة لشذوذ ما يأتيه على مرأى منهم .

وتوجس نفر قليل منهم خيفة مما يرمي إليه ، ورموه بالمبالغة ، وصرحوا برأيهم لما تبقى منهم ، غير أن أولاء كان إخلاصهم له قد سرى في عروقهم ، واختلط في دمهم ، فكذبوا ما ذهب اليه ذلك النفر ، ودافعوا عن الرجل بشمم وإباء ، وهم في غفلة عن أمرهم وفي جهل من حالهم .

وأمسكوا بحبل الصمت عند ماشاهدوه ينهض من سجدته ، وانتظروا قليلا يودون الوقوف على ما سيفعل ، فوجدوه يتقدم منهم رويدا رويدا فخافوا أن يكونوا قد أثاروا غضبه لحاقهم به ، فهموا بالفرار ، غير انه اشار لهم ان تستتب السكينة والطمأنينة فيما بينهم .

وكأنه سلط عليهم قوة سحرية خارقة ، فوقفوا راغمين مذعنين لامره

obeikandi.com

وتقدم منهم حتى صار على رأسهم ، وطلع عليهم بصوت لين يسيل رقة جذب حواسهم اليه من شتاتها ، وصرف افكارهم عما حصرتها من مختلف الامانى ، وانساب فيهم قوله ، يبغى ودهم ويطاعهم امره :

— أيها القوم : لا تخشوا شيئاً ، فما أنا إلا حارسكم المختار من قبل الله ، أسهر عليكم سهر الأم على فلذتها ، وأبذل أنفس ما أمتلك لأذود عنكم ، فلا غرو إذ أنتم عشيرتى : هبطت اليكم من عالم الغيب ، ودرجت بينكم يتيما لطيا ، لا أعرف لى أبا أنعم بشفقته ورعايته ، كما أجهل أما أجذل بحنانها ، وتعطر على الوانا من أفراحها وسرورها ، عديم أهل أثوى اليهم ، وأتلذذ بقربهم .

ولكن اعتاضنى الله بكم خير أهل وأحسن قرب . فمن له بمثل ما غمرنى ؟ . أنتم جميعاً آبائى وأمهاتى ، رجالى ونسائى ، أطفالى وأولادى وبناتى ، والبلدة كلها بيتى . . حقا انها لنعمة أشكره عليها سبحانه وتعالى . وما دامت تربطنى بكم تلك الصلة ، فأرجو اليكم أنه من به منكم شك فى أمرى فليتخذ الردة إلى البلدة ولا يكلف نفسه عناء الاصغاء إلى ، والله ولى أمرى .

وبلغ تأثيره عليهم أشده فظلوا فى صمت بليغ ، وخيمت عليهم السكينة بردائها ، وكنت لا تسمع منهم الا زفرات تنفسهم ، ولا ترى الا عاطفة الاستطلاع مرتسمة على وجوههم ، واستطرد بصوت أجش :

— إن صمتكم لدليل محسوس على تتبعى ، فيالكم من كرام بررة ، تطرحون الضلال ، وتتبعون على ما يهديكم سبيل التقوى والفلاح .

أى عشيرتى : أنبئكم الساعة بما لم ينبئكم بمثله خبير ، فلقد اطلعت على قليل مما فى المستقبل القريب ، فعلمت أن يوم غد مهول قطرير . . يوم فيه لا تملك نفس من الهول لها شيئا . وصمت قليلا ، وأمعن فى القوم ، فرآهم عند كلامه صاغين ، فتابع قوله بنغمة رقيقة :

— لكم غدا ما ينتظركم فى هذا المكان ، مما يبرهن لكم عن منزلتى لديه سبحانه وتعالى : فلتخرجوا الى هنا ولن يصيبكم الضر قط ، إن هى الا غيمة قاتمة تضرب أستارها اليوم كامله تتخللها عواصف هادئة .

ثم لأخبرنكم عن ظهور قوس قزح الشتاء ، وسيكون مخنوقا بأيدى القدرة

obeikandi.com

جلت وعلت مكانتها . . هذا حديثي معكم ، ومن يك منكم في ريب من أمري فوعدي معه غداة في هذا المكان ، والسلام .

وتكلم بعض القوم بصوت مختنق دهشة مما سمعوا ، يؤيدونه في كل ما قال .

يا لسذاجة ذلك الجمهور الذي يتتبع سخافات رجل ألقته المقادير في سبيلهم فراح يرسم خططه وحبائله التي استمدها من شيطان الآثام يغرر بهم أيما غرور . ولم يكونوا على علم بما تنطوي عليه نفسه من الأسرار والأحاجي ، فصدقوا كل ما أدلى به قبل أن يحين أوان اثبات برهانه على صدق ما قال . يا لهم من جهلاء : ظنوا به من مقرب إلى الله ، وما أبعده عن طفل ساذج بريء ، ولم يدروا أنه يحتال بهم . . لقد عرف بوساطة الفلك الذي يجيده ما سيحدث في غده من التقلبات الجوية ، فلفق لهم الامر في صيغة أعاجيب العبادة . وأتى الغد ، وخرج الناس من البلدة رغم سوء حال الجو ، وما أن وصلوا إلى المكان المعلوم حتى وافاهم الحاج عمر إلى مقرهم ، وبعد هنيهة اشتدت حالة الجو سوءاً وتكدس بسحب كثيفة ، واشتد هبوب الرياح ، وضرب القتام على رؤوسهم رويداً رويداً ، ولكن لم يرعهم ذلك إزاء شغفهم في رؤية نبوءة الرجل .

وطار على هاماتهم الشوق والتلهف ، غير مبالين بما يدور حولهم ، واجتذب أنظارهم على فجأة خط ذي ألوان خفيفة عند الأفق ، وعما قليل بدأ يظهر في جلاء ووضوح ، حتى ظهر تماما . . . وكان ذلك هو القوس قزح . وانتشرت الدمدمة والهمهمة بين الناس ، وفجأة أمسكوا بحبل الصمت عندما شاهدوا شبح يد هائلة تغطي بأصابعها أجزاء متفرقة من ذلك القوس قزح .

وسبح القول بحمد ربهم ، وأخذوا يتلون ما تيسر من الآيات البينات ، ولم يتمالكوا أن خروا سجداً لله يطلبون منه الرحمة والمغفرة .

الفصل الثامن — ذات الزوجين

نال الحاج عمر حظوة كبرى لدى أهل البلدة لما شاهدوه من صدق نبوءته فلقبوه بالولي الكبير صاحب المعجزات (والكرامات) ، وراح الجمهور الساذج يضرب في نواحي تلك الأفكار السخيفة في المجالس الخاصة والعامة ما شاءت له الأحاديث ، وكيف صبت له الظروف .

وشاع ذكر الرجل فى آفاق البلدة وقراها ، مما سهل له الأرزاق ودر عليه الخيرات ، وأخذ الفلاحون بعد ذلك يتسابقون صباح كل يوم فى إرسال مايتسنى لهم من خير حاصلات الريف من لبن وجبن وزبد مع الصبايا الريفيات (إليه) يدور فى خلدهم أن السابق فى ذلك هو الرابح ورفاقه هم الخاسرين .

وفى يوم الجمعة الأول لذلك ، احتشدت الجماهير الغفيرة أمام منزل الحاج عمر . أمته من مختلف النواحى والجهات ، وقد تحمل كل شخص وعائلته مشاق السفر بين الحقول على متون الأتن ، يطلبون استشارته فى أمورهم الحيوية ، أو فى أمراض نسائهم ، أو لحصول بركات منه . .

ونجح الرجل نجاحا يحسد عليه ، ولا غرو فى ذلك ، فله عينين مستشفتين يستطلع بهما أدق أسرار القلوب ، وله نظرة لايستردها خائبة ، بل مصحوبة بما يسهل له السير فى طريق الحياة (الأعوج) باسم بهتان يتخذه ستارا لاستدرار مطامعه الأشعبية فضلا عن الوصمة السوداء التى يصم بها الدين الحنيف

وتناقلت أفعاله الحسنة ألسنة العامة ، وما أسرعها من ألسنة تنقل الأخبار أنشط من البرق ، وانتشر نجاحه فى سائر أرجاء المقاطعة والمحافظين ، فصار الناس يأمونه من كل حدب وصوب ، لايتوانون فى بذل أفدح مايطلب منهم مادامت النتيجة مقابلة هذا الرجل الذى دانت له جيوبهم عن اغتباط وسرور وقد احتل من نفوسهم فى طرفة عين مكانة أرفع من تلك التى نالها عن جدارة واستحقاق مولاه الشيخ ابراهيم استاذه الراحل السابق .

وفى منتهى اليوم أعلنهم أنه يطلب الراحة ، فأخذوا ينصرفون زرافاتا ووحدانا يمطرون شكرهم وثناءهم على ذلك الرجل الذى باركهم وقابلهم بالبشاشة واللين ، وأوشك أن يغلق الباب لولا أن دفعه بلطف ثلاث نسوة لكل منهن جاذبية تسلب ألباب الرجال ، ونظر الحاج عمر إليهن ، فوجد بينهن المرأة فاطمة تفوق الاثنتين بهاء وجمالا ، ولها وجه ازدادت فتنة تقاطيعه عما كانت معه فى الحجاز ، وابتسم لهن قائلا :

— ماالذى أخركن إلى هذا الوقت ؟ لقد انصرف الأهلين .

فأجابت فاطمة برقة ونعومة نبهت حواس الحاج عمر :

ـ نحن نعلم ذلك ، ونريد ذلك حتى لا يقلقنا أحد فتكون الزيارة أعمق أثرا .

وابتسم الرجل بسمة قصيرة قائلا :

ـ على الرحب والسعة في غرفة (الحريم) ، ولو أن ميعاد راحتي قد آن .

وتقدمهن إلى الحجرة الخاصة ، وجلسن معه يتجاذبن أطراف الحديث ودار سمرهن فجأة حول الحياة المنزلية والزوجية ، وأخذت المرأتين تبديان سرورهما واغتباطهما لتلك الحياة الجميلة . فصارتا تطنبان فيها المدح ماشاء لهما الحديث وأنت فاطمة عن صدر مندمل ، وتأوهت آهة قصيرة ، وشردت قليلا ، ولكنها جمعت شواردها ، ونظرت إليهما في ألم وغضاضة ، وقالت :

ـ إن حياتي سارة وجميلة ، وفيها كل مايبهج نفسي . ولكن ياللأسف ، فكل جميل لايتم إذ أني قد تزوجت منذ أربع أعوام ، وبالرغم من طول هذه المدة ، فاني لم ألد لزوجي طفلا . . وأخشى أن يسأمني لذلك ، فتجذبه امرأة أخرى عني بتلك الوسيلة . فاعتدل الحاج عمر في مقعده ثم أغرق في تفكير قليل ومالبث أن رفع إليها بصره وقال : ـ لاتقلقي بهذا الشأن . سأسهل لك غايتك وستنالين أمنيتك قريبا إن شاء الله . ولما سمعت ماقاله به لم تتمالك أن قامت وركعت على ركبتيها ، وقالت له متوسلة ـ بربك ياسيدي افصح لي عن خطتك أكون خادمتك مدى الدهر . فأمهلها وبسمة تشرق من وجهه قائلا :

ـ دعيني أفكر قليلا في الأمر . لايكون ذلك الآن ، إذ أن إعداد الوصف يستغرق زمنا . وانتهت الزيارة بعد أن بارك السيدتين ، وأوعد فاطمة أن تأتيه فيما بعد كي يعمل على تحقيق أمنيتها . ومر يومان ووافته المرأة عند غروب اليوم الثالث ، وقد ضرب الشفق بقعاته في الآفاق ، فاكتسب الأنوار حمرة قانية ، والشمس تدلف الى المغيب خلف حجابها .

وأقفر منزل الحاج عمر من الزائرين ، ولم يبق به سوى فاطمة معه ، وأتى اليها فأسرعت له قائلة : ـ لقد أتيت اليك ياعماه أبغي منك أمنيتي . فهل اعددتها لي ؟ فاطرق قليلا ، وأمعن النظر في الخيال ، ثم صاح بجذل دفعة واحدة : ـ أجل ياعزيزتي إن كل شيء على مايرام .

فابتسمت عن اسنان لؤلؤية تقطر من بينها حلاوة الشهد ، ورفعت اليه

عينان سوداوتان ذاتا اهداب طويلة ، مما سحر لها الرجل في مكانه ، واستحالت نفسه التى هذبها الشيخ ابراهيم ، إلى الحالة الاولى ، بل اشد وانكى مما كانت ، . لقد وجد نفسه اخيرا على انفراد مع امرأة بلغت كمال الانوثة ، وغاية في نضوجها التام ، وهو رجل شرير بطبيعته ، فضلا عن انه لم يتذوق معنى سعادة الاتصال الجنسي من قبل . ونظر اليها فراى ثغرها يفتر عن ابتسامة داعية ، فابتسم لها ، وراى ان الفرصة سانحة لاستغلالها في تحقيق مآربه ، فتقدم منها وقال لها مغريا : — ألا تأتين الى غرفتي حتى اهيىء لك أعشابا طبية تتناولينها بمعرفتي ؟ . فأجابت ضاحكة مستبشرة :

— ومتى قيل لك يامولاي اني افعل كما اشاء ؟ ، مرك مطاع .

قالت هذا وسارت خلفه ودخلت حجرته الخصوصية ، وكان بها فراشا مريحا ، وبضع مقاعد وارائك وفي الوسط منضدة متوسطة : — اشياء كلها هدايا وميراث — وكان قد وضع على الارض موقدا كبيرا ، فتقدم منه واضرم فيه نارا ، ثم القى فيه قليلا من (المصطكى) وبضع عقاقير خاصة من لفافات يحتفظ بها معه ، وامر المرأة ان تتقدم وتتخذ مكانها من تلك (المبخرة) العجيبة .

واذعنت فاطمة لأمره ، وما كادت تتخذ مجلسها منها حتى شمت رائحة لذيذة استقرت في خياشيمها ، وانتقلت من عالم الحقيقة الى عالم آخر . . كان عالم الاحلام والأماني .

رأت نفسها تسير في روضة غناء ، وقد ارتدت حريرا ناصعا فبدت كزهرة أثيلة ، وطرحت جديلتي شعرها على صدرها ، وجمعت ما تبقى منه على رأسها بمنديل بنفسجي . وسارت قليلا ، ثم قابلت امرأة اخرى ترتدي ملابس أنيقة ولكنها اقل قيمة من تلك التى ارتدتها ، وكانت تحمل طفلا جميلا ، غارقا في لفائفه ، فابتسمت ابتسامة خلابة تنم عما بها من السرور ، وأخذت تداعبه وتدلله ، ثم تناولته منها ، وضمته إلى صدرها ضمة تنم عن كل معاني العطف الأموي ، والحب الشديد . ولم تتمالك من فرط عاطفتها الشديدة ان اخرجت ثديها من نطاق ثيابها والقمته فم الطفل ، واخذ هذا يمتصه بشراهة تدل على سغبه ، فمالت عليه بدافع الحنان ، وقبلته قبلة طويلة اودعتها كل ما فيها من الحب ،

واستيقظت من أحلامها فجأة ، فهالها ما كان . . . رأت أن القبلة الطويلة التى أودعتها فم الطفل لم تكن له ، بل كانت قبلة قوية انطبقت على فم الحاج عمر ، مما (دعاه) لأن يجيبها عنها فتناولها بين أحضانه .

وارتعبت لهول مارأت ، ولم تدرك كنه ماوقع لها بالضبط ، كما أنها لم تدر كيف تدافع عن نفسها ، ولما رأت نفسها طليقة ، أخفت وجهها بين يديها وأجهشت فى بكاء عميق . وتقدم منها الحاج عمر ، وطيب خاطرها قائلا :

— يالك من طفلة ! . . ألا تبغين الولد ؟ . أنا . . أنا الحاج عمر : أطلبك زوجة وفتية لى . . ورفعت يديها ، ونظرت اليه ، فرأته يمعن فى حدقتيها بنظرة حادة بدت منها عوامل العزم والقوة ، وأصبحت خائرة ، وشعرت بالتعب يدب الى جسمها رويداً رويداً ، فتمالكت جأشها قليلا ، وطرق فكرها الساذج أنه ذلك الرجل الهائل ذو المقدرة السرية فى فعل كل شىء ، فلم تتوان أن أسرعت وألقت نفسها بين ذراعيه .

الفصل التاسع — الجرائم الخفية

فى صباح أحد الأيام الصافية ، وقد كان الجو عليلا ، والسماء رائقة الأديم وقد خيم الهدوء على البلدة كالمعتاد ، وكل يرعى انتباهه لأعماله .

وفى قسم بوليس البلدة ، أتى الضابط المنوط بمهمته واتخذ مقعده أمام مكتبه متكاسلا ، وبعد أن نظر فى ساعته قال للجندى الذى على المكتب الصغير المقابل له : — مارأيك فى أن البلدة هادئة ؟ . لم يحدث فيها مايجعل بعض النقود تضاف الى الخزينة . فضحك الجندى ببشاشة لفكاهة ضابطه ، وصاح قائلا : — بل دعهم ياسيدى فى سكونهم الى الابد حتى ننال قسطنا من الراحة ، ولم يكد يتم جملته حتى انطلق فلاح إلى وسط الغرفة كالقنبلة ، وكانت حاله تنم على الفزع والرعب وملابسه الزرقاء رثة أوشكت أن تبلى ، والاوحال والاقذار عالقة بساقيه ويديه ، وصارت نظراته تتنقل من الجندى الى الضابط وصاح بهول وارتباك : — سيدى . . سيدى البك . . جريمة . . جريمة هناك . . عثرت عليها ، فاستدار الضابط اليه بكلياته عند ماسمع طرف كلامه ووجه نحوه كل اهتمامه ، وراح يطمئنه قائلا :

— امتلك روعك . لاتخش شيئا ، فأنت هنا فى دار الشرطة . تكلم ماذا حدث ؟ . وغص الرجل بحلقه ، وتمالك شوارده بعنف ، ثم صاح وهو ينتفض فرقا : — في حقلي قطعة أرض مهملة تقع جانب الطريق ، وكنت فى غنى عنها لعدم احتياجى اليها فأخذنا منها مكانا للراحة ، وطرأت على أخيراً عوامل جعلتنى أغير فكرى : فوطدت العزم على غرس تلك البقعة نظراً لاحتياجى اليها . واليوم تناولت معولى وسرت أبغى عزقها ، ولكنى ما كدت أقلب قليلا من ثراها حتى اشتبك سن المعول بشىء رخو ، فأسرعت اليه ، وما كدت أتبينه حتى هلعت له ، وداخلنى الخوف ، وخشيت على نفسى جدا . . فقد كانت جثة امرأة عارية الثياب ساكنة سكون الابد ، ولم أتمالك نفسى ، ولم يهدأ روعى الا عند ماصرت أمامكم .

واهتم الضابط بهذه القضية الجديدة ، فوضع القلم على كتب من أوراقه وشبك يديه عن عزم ، وأشار الى الجندى بكتابة كل ماقاله الفلاح فى محضر ذيله ببصمة أبهامه ، وتوجه مع بضعة آخرين يعاينون الجثة ، فما كادوا يشاهدون مكانها حتى أخذتهم القشعريرة هول ماشاهدوا . . رأوا جثة لامرأة فى ريعان الصبا ، وقد بدأ الانحلال يدب فيها شيئا فشيئا ، مما يدل على أنها دفنت فى هذا المكان منذ زمن ليس بالقصير . واستدعى الضابط الرجل الريفى وقال له محققا : — ألا تعرف هذه المرأة أيها الرجل ؟

فأجابه الفلاح ووجهه ممتقعا : — كلا ياسيدى . إنى أراها الآن فقط ولأول مرة فى حياتى . . وسأله ثانية وهو يمعن النظر فى عمل الطبيب الشرعى : — ألم تشاهد ، أو أى من عائلتك ، غريبا على هذا المكان فى المدة الاخيرة ؟ أى مثلا ألم تشموا رائحة كريهة لاعهد لخياشيمكم بمثلها ؟ . .

فامعن الرجل قليلا يتذكر ، وصاح قائلا :

— كلا . كلا ياسيدى . انى لم أطرق هذا المكان منذ بعيد ، فضلا عن اقفرار الطريق الموحش الملاصق له . وكل آل بيتى والناس يعلمون رهبة ذلك المكان ويذهبون الى أنه مسكون بالشياطين ، فترك مهما قفرا ، وصار لايجرأ أحد على الدنو منه حتى فى بعض أوقات اليوم عند ماتكون

الشمس فى رابعة النهار وصمت قليلا ، ثم مسح العرق البارد الذى تصبب على جبينه ، واستطرد : — واضطررت ان ازرع تلك القطعة لاضطرارى لها ، ولكني ما كدت اضرب قليلا بالمعول حتى جذب الى حافته جريمة هائلة ترتعب من هولها الابدان .

وتحول الضابط إلي الطبيب وتناول تقريره ، وقرأه فعلم أن هذه المرأة قد قتلت ودفنت منذ أربعة أيام ، وفى هذه اللحظة أخذ سمعه أصوات ناس قادمين وما أن وصلوا إلى مكان الجثة وتعرفوا إلى صاحبتها حتى علا صياحهم وارتفع بكاؤهم وعويلهم ، وأخذ نساؤهم يلطمن ويندبن ، وقد ضجت الأرجاء بولولة الجميع ، والتفت الضابط إلى شاب ضمن ذلك الحشد ، وأشار له فلما اقترب سأله قائلا : — ما أمركم أيها القوم وهذه المرأة ؟

فقال الشاب وقد اغرورقت عينيه بدموع الحزن والقهر :

— هذى زوجة أخى ياسيدى ولست أدرى من قتلها ، ولأى سبب ؟.. مع أننا فى وئام وخير مع كل الاهلين ، ولا توجد هناك ضغائن بيننا وأحد قط .

فدهش الضابط للأمر وسأله : — ومنذ كم يوم غابت عنكم ؟ . . .

فقال الشاب (واسمه حمدى) بعد أن أمعن قليلا :

— منذ ستة أيام ياسيدى . . لقد خرجت فى حاجة لنفسها لم تطلع أحدا عليها ، وكانت تصحب كل حليها وبعض ما ادخرته من المال ، ولما طال غيابها ظننا أنها فرت مع عشيق لها . وفكر الضابط قليلا فى الأمر وقد أدرك أسباب الجريمة ، ثم قال : — لماذا لم تبلغوا دار الشرطة عن غيابها ؟ . .

فنظر اليه الشاب شذرا وقال :

— لقد اكتفت العائلة بذهابها الى الحاج عمر اذ ربما يكشف لنا عن مكانها فرأيناه عازما على السفر الى ممنود ، وميعاد رجوعه ظهيرة اليوم . . فآلينا على انفسنا انتظاره حتى رجوعه . فضحك الضابط ضحكة ازدراء رغم دقة الموقف وقال غيظاً : — ومال هذا المتعيد ومهنة الشرطة ! . حقا إنكم لقوم ذو عقلية مظلمة محدودة لا تدرون ما فيه النفع لصالحكم ، وتنقادون انقياد الأعمى إلى دجال لا يعرف ماضى حياته ، فيكشف عن المستقبل وأسراره . .

وحررت كل أقوال الشاب (حمدى) وعائلته فى وثيقة ، وأمر الطبيب الشرعى حمل الجثة لتشريحها ، ثم يسلمها ذويها بعد ذلك ، وبينما الضابط يهم بمغادرة المكان إذ أتى اليه فلاح آخر ، وكان فى حالة تشبه الهذيان ، وأخذ يضطرب كريشه فى مهب الرياح ، ولم يتطرق اليه الاطمئنان الا عند مارأى الضابط ، فصاح فيه هذا بعنف وقسوة :

ـ ماوراءك ايها الرجل ؟ . افصح بالامر والا فارحل ودعنا نوفر مؤونة الاصغاء اليك ، فقال الرجل فى ارتباك : — جريمة ياسيدى . جثة لامرأة وجدتها فى حقلى . فدهش الضابط لقول الرجل ، ونظر الى الطبيب الشرعى فرآه يهم بركوب سيارته للانصراف ، فصاح به مسرعا ينبغى استبقاءه :

ـ مهلا . . مهلا . . هناك جريمة أخرى نود إتمامها . .

وعدل الطبيب عن الركوب ، واصطحب الضابط والجندى والرجل ، ولما وصلوا الى مكان الجثة تبينوا أنها لم تقتل الا مساء الامس . وتعرف الرجل على ذويها ، وحررت حالات وجودها عارية فى وضع ترتعد له الأبدان فرقا ، وسجلت شهادات أقاربها . وأخيراً حولت إلى التشريح ، وفى أثناء رجوع الضابط الى مقره التفت اليه الجندى ، وقال له فى دعابة وفكاهة :

ـ مارأيك فى أن البلدة هادئة ، لم يحدث فيها مايجعل بعض النقود تضاف الى الخزينة ؟ .

الفصل العاشر — التضليل

دخلت فاطمة منزل الحاج عمر ، وقد اتخذت المعاذير لكثرة ترددها عليه : أنها تقوم له ببعض مايحتاجه ، مما لاقبل له به فى حياته الطويلة الغاصة بمختلف الوقائع ، وقابلته فى غرفته الخاصة وما كادت تراه حتى أسرعت اليه وارتمت فى أحضانه ، وقبلته قبلة طويلة تنم عما يكنه له صدرها من عوامل الحب والغرام وأجابها عن فعلها فشدها إلى صدره يضمها ، ثم قالت له بعد أن دفعته قليلا بلطف :

ـ سفراً سعيداً وعوداً حميداً ياعزيزى . على رحلتك الى سمنود اقترنت بوسائل النجاح ؟ . فنظر اليها الرجل نظرة خاصة ، وابتسم ابتسامة صفراوية ، وقال لها :

ـ انى نلت كل ماأرمى اليه من هذا السفر ، وأحمد الله جزيلا على كل ذلك النجاح

الذي حمل اسمي الي الآفاق البعيدة ، فهز أوتار قلوب الناس وأخذ منهم تأثيره عليهم فأخذ يجذبهم الي جذب حجر المغناطيس الحديد . ولولا اصداري مواعيد أوقات خاصة للزيارة ما كنت أتنعم بقربك في هذه الحفلة السعيدة .

فرنت اليه المرأة بنظرها رنوة طويلة وداعبت وجهه بيدها وقالت :

ــ بشراك ياحبيبي بما نلت ! . أهنئك من كل قلبي على هذا الفوز العظيم الذي أحرزته . وأطرق الرجل ببصره الى الارض يمعن في أموره الخاصة . لقد لعبت بجبينه الغضون أخيراً ، وصار مقطب الوجه معقود الاسارير ، لا تبدو عليه بادرة الانشراح الاحين وجود فاطمة الى جانبه ، فانها تسرى عنه بخفتها ورشاقة عودها ، وينسى بجانبها المتاعب الطارئة وآلام النفس المعذبة . كيف لا وهي ابنة حواء تلقنت عن أمها أسرار جاذبيتها ، وأخذت عنها أساليب قيادتها للرجل ، واغرائها له بعوادها كتمها من الدلال ، وتسيطر عليه ببريق حسنها وجمالها . وأما في ساعات وحدته فيركن الى الهم يتخذه أليفه ، وينزع الى وهاد الالم والشعور بالحقيقة في فترات متقطعة يطلب امتهادها . على أن كل ذلك لا يجد الى فؤاده سبيلا حين تأتيه المرأة ، فتبدد كل ما في نفسه باشعة بسمة من وجهها . .

ونظر اليها بعينين نضاختين بجوار من السرور والفرح ، ثم مال عليها وقبلها ، فاجابته بالمثل وطوقته بذراعيها ، وأخذت رأسه على صدرها ، واستكان لها تعمل ما يروق لها ، فقربت فمها من أذنه وهمست ببضع كلمة مضطربة لم يفهمها الحاج عمر بالضبط ، فنظر اليها نظرة المتسائل الجاهل مرماها . وقال :

ــ لم أفهمك ياعزيزتي . فماذا تبغين أن أعلمه ؟ . يلوح لي أنه أمر هام .

فضحكت فاطمة ضحكة خجل وسرور في آن واحد ، وقد طفرت الحمرة الى وجنتيها وانثنت الى الجهة الاخرى ، ولكنه جذب وجهها نحوه ، فألفاها ضاحكة فافتأل خيراً ، ثم قالت له فرحة : ــ ألم تعلم أني حامل ياعزيزي ! . . نعم في بطني جنين لست أدري نوعه في عالم الأجنة . اني أعلم علم اليقين أنه مما يسرك هذا الأمر ، ومما يزيد سيطرتك قوة وتأثيراً في نفوس الأهلين .

وما أن سمع الحاج عمر كلامها حتى هجم عليها بسرور وأخذ بطرفها ووجنتيها بالقبلات ثم أبعدها قليلا وفد أمسك بيديها ، ونظر الى بطنها باسماً نظرة ذات معنى ،

obeikandi.com

وصاح جذلا وحبوراً ولكن فى لهجة الجد :

ـ وهل تثقين ياعزيزتى أن هذا الجنين ابن زوجك أتاك به منه ؟

فامعنت المرأة ، وقلبت وجوه الفكر ، ثم قالت فى تأكيد شديد .

ـ لقد عاشرت زوجى مدة أربع سنوات لم ينسلنى فيها ولدا ، ومرت على معاشرتك لى مايقرب من الستة شهور شعرت بعدها بالذى يلعب فى احشائى وهذا مايؤكد لى بطبيعة الحال انه ابنك . انه ابنك فى نظر الشريعة الوضعية الساهرة ، وابن زوجى فى نظر الهيئة الاجتماعية ، والآن فانا حائرة ماذا أصنع ؟ . فابتسم الرجل وضمها الى صدره يطيب خاطرها ، وهش لها يداعبها وقال : ـ ليكن ابن زوجك ياعزيزتى . ولندع الهيئة الاجتماعية تتغلب فى حكمها ظاهريا على القوانين الوضعية . فابتسمت المرأة ، وسرت لثاقب رأيه وصاحت :

ـ حقا إن زوجى كان يتطاول طمعا فى الحصول على طفل ولكن الطبيعة عاكسته وبددت أمنيته ، إذ هو عاقر لايصلح للنسل ، دون أن يعلم الحقيقة المؤلمة ، وتصور ياعزيزى حاله عندما أخبرته بأنى حامل : لقد كاد يطير فرحا وسرورا واغتبط لذلك النبأ السار ، فراح من وقته يلاطفنى ويدللنى ، ويحضر الي كل ماأحتاج . وصار يغمرني بحنانه الشديد ، وعطفه المتين لما علم ماله من النسل فى بطني

تصور ذلك المسكين ياعزيزى عندما يأتى إلى ويقبلنى ويوصينى الاعتناء بنفسى ورعاية صحتى من أجل حملى ، حتى يحين أوان الوضع فيرى ابنه ، فتنزل منى تلك الأفكار نزول الصاعقة ، فقبلها الحاج عمر يرفه عنها ، ويبعد عنها ماجاش بخاطرها ، ثم قال : ـ ليكن ابنه ياحبيبتى ، فدعيه يتأكد من أبوته له ، ولتسجل الأوراق باسمه ، فهو كفء لرعايته . أما أنت فأرجو أن ترعينى برعايتك ، وتقبلين على أنا الذى أنسلتك الطفل ، وبذلت جهدى فى احضاره . .

فابتسمت له وقد خجلت لدى كلامه ، ولكنها قالت برباطة جأش :

ـ أنا لك ياعزيزى . . أنت زوجى الثانى بعد زوجى الأول . هو زوجى فى نظر القوانين والشريعة وأنت بعلى الحقيقى الذى أحبه وأعبده . . بعلى فى نظر الفطرة الأولى وحياة الطبيعة الجميلة . .

وما أتمت كلامها حتى هجم عليها يقبلها فى كل موضع يقع عليه فمه ، وقد

سلب عقله بجمالها ، فلم يعد يبصر شيئاً في هذا العالم ، فترك عنان أموره لغاربه ولم يعد يفكر في شيء سواها . وفي تلك اللحظة سمع أصواتاً بباب منزله ، فأسرع وأمسك عنها واقتادها الى حجرة داخلية هادئة . وخرج يستطلع الأمر ويستجلي سر ذلك الذي قطع عليه عذب ملذاته ، فرآهم قوما متشحين بالسواد باكين ، فاستنطقهم أمرهم فأجابوه أنهم يعتقدون أنه رجل مقرب من ذات الله ، ويرجونه في كشف القناع عن قاتل المرأتين .

وارتعب الحاج عمر لدى سماعه قولهم ، غير أنه تمالك رباطة جاشه ، وثبت قلبه بين أضلاعه ، وأوعدهم خيرا ، ويبذل كل ما في جهده في أقصائهم عن البيت ، ودخل بعد سيرهم مشتت الفكر مضطرب الأوصال .

وأخذ يضرب في فيافي الافكار ، ويتقلب في بحار مضارب الظنون والآلام ولم يبعده عن أمره سوى فاطمة وهي تناديه بصوت خافت . فتذكرها وسرعان ما خرج عن همومه الطارئة ، ومال اليها يلثم ثغرها الشهي . يالذلك الداهية الحاج عمر الشيطان الخبيث الذي أوقع امرأة كانت طاهرة في حبائله . . أملى عليه زعيمه ملك الأبالسة أوامره ، فأخذ ينفذها بخطة محكمة لاقت نجاحا وأي نجاح ، وأخذ يغرر بالجمهور الجاهل الساذج المسكين ، وهو في خفي من أمره ، ولا يعلم بباطنه وغامضه غير الله . لقد أدخل في روع الاهلين أنه راحل الى سنودلا زتوما من أعيان بلاده يدعوه لزيارتهم ، ولكن أكبر به من ادعاء كاذب لا وجه له من الحقيقة بمكان . لقد سافر ولكنه لم يمكث هناك سوى يوما قضاه في البحث عن قوم يمكن أن يمتوا اليه بصلة قرابة أو نسب ، إلا أنه رجع بخفي حنين ، اذ لم يقف لهم على أثر ، فرجع والهم يقيمه ويقعده والآلام يمزق فؤاده . ودخل البلدة في جنح الليل الى منزله ، وادعى أنه مكث تلك المدة سفرا . وفي صباح اليوم التالي استيقظ مبكرا ، ونادته المرأة الى مقره ، وبعد فض الاحتضان أوعز اليها أن تأتيه ملء الاناء ماء من الصنبور الذي يقع خلف المنزل فأطاعت صاغرة .

وما كادت تصل الى المكان حتى عكرت خياشيمها رائحة قوية انتضت عليها مضجع أنفها ، فاستنشقت ريحا هائلة مملوءة نتنا وأوشابا ، وعلت النفس على

حاستها غير ان ذلك لم يكن في مقدورها ، فألقت الاناء أرضا ، وأسرعت الى الحاج عمر تطلعه على ما وقفت ، فسار معها الى البئر ونظر فيه ، وأمعن التأمل جهده ، فميز جثة عائمة على وجه الماء ، فاشمأز لهول ما رأى ، وصاح رعباً بصوت أبح مخنوق :

ـ يالله . . هذي جثة . من أين أتت الى فناء بيتي ؟ . . ومن قتلها يا ترى ؟ . .

وأسرع في الحال الى دار الشرطة ، وقابل الضابط ، وعرف هذا من هو ، وكان يقول له في رعب واضح : ـ انها جريمة هائلة ياسيدي الضابط . ولست أدري من ألقاها في داري . فنظر اليه الضابط نظرة ريب جاشت في نفسه ، وطرأ عليه خاطر طريف فقال : ـ ألا تعلم من هو المجرم ياحاج عمر ؟

ـ كلا ياسيدي . ان هذه من مهمة الشرطة والعسس قط .

وسار الضابط مستصحبا الطبيب الشرعي والجندي المختص مع الرجل حيث يتخذون الاجراءات اللازمة في مثل هذه الاحوال وهم يتعجبون أيما عجب لتلك الجرائم الغامضة التي تقع في البلدة الهادئة أخيرا .

الفصل الحادي عشر — الحبيبان

فتاة في ريعان الصبا ونضرة الشباب ، ذات خد أثيل ، طريفة الانف ، مزججة الحاجبين ، واسعة العينين ، حمراء الشفتين ، طويلة الرقبة ، غليظة العنق ، عريضة الصدر ، بارزة النهد ، ممشوقة القد ، معتدلة القوام ، في خصر نحيل ، وأرداف متزنة ، ناضجة كاملة ، وقد زين رأسها شعر حالك السواد ، أسدلته على كتفيها في جديلتين طويلتين بلغتا منتصف أفقارها ، ذات ساقان خدلجتان ، وساعدان أملسان ، سطعت في سماء السنبلاوين فاحدثت ضجة بين شبانها ، وراح كل يخطب ودها في غير أمل ، وهي في غيب عن أحوالهم

تبلغ قمة الربيع السابع عشر من سني حياتها ، ونشأت نشأة من يجهل ابويه في طفولته ، وذويه في الشباب . وكانت تود ان تعلم عنهما الشيء الكثير ولكن خالتها انكرت امرها واخبرتها انهما ماتا ابان طفولتها في حادث حريق لم ينج منه سواها ، فاغرورقت عيناها بالدموع وودت لو لاقت حتفها معهما حتى لا تعيش وحيدة في هذا العالم المضطرب . وكثيراً ماشددت على خالتها وخالتها تشدد عليها النكير في الأمر ، فلا تخرج من حديثها الا ولا فائدة حنتها

من الاصرار . كانت تسمى زبيدة ، ولاتدرى أنه حقيقة اسمها الذى اطلقه عليها والداها ، أم مجرد منادى الصقه بها أولئك القوم الذى تعيش فى كنفهم يحترمونها ويجلونها ويسرون عنها رغبة فى اهمال ابويها ، ولكن مازادها ذلك الا اشتغال عاطفتها ، وايقاظ حاسة الحنان على فقيديها تبغى من الوقوف على امرهما الشىء الكثير .

سارت فى طريقها وقد طرحت تلك الامور فى تلكم اللحظات ، غير مبالية بنفسها من تكون ، ولا بدع فان أفكارها كانت مشتتة الأوصال مضطربة البناء ، وقد بدا فى خطواتها شبه تعثر ، فامتلكت رباطة جأشها بعنف ، وبعد عشية كانت خارج البلدة تقصد خميلة منعزلة قليلة المطرق ، تصلح حضنا للعشاق يتبادلون فيها أحاديث الصبابة والهوى ، ويتناجون داخلها بوحى الحب والغرام .

ولم يسقطها فى شباك غرامه من كل شبان البلدة سوى فتى واحد ، تحلى بصفات جعلته يمتاز عن رصفائه بمراحل ، فقد كان حلو الشمائل ، حسن الخلق والخلقة ، جذاب الحديث ، تتخلله الفكاهات العذبة ، والنكات المسلية ، يمتهن الكتابة فى خاصة أحد الأمراء .

وانتظرت قليلا فى الخميلة ، فما لبث أن وافاها حبيبها (حمدى) وهو يلهث والعرق يتصبب من جبينه دفاقا ، ولما رآها ابتسم لها بسمة حلوة ، وتقدم منها ماذا يده اليها ، فغضت طرفها خجلة ، وصاح لها فى بهجة :

— لقد كنت مع بعض أصدقائى ياعزيزتى ، ولم أتخلص منهم الا بشق النفس بعد أن مر جزء من الميعاد . فرفعت اليه بصرها ، ثم رنت اليه طويلا وتملكها السرور فما لبثت أن قالت : — لله درك أيها الحبيب ! . ما أطيب نفسك ! وما أحسن صفاتك التى جعلتنى أغرق فى سبيل من السرور . . وضحك الشاب ضحكة قصيرة وأمعن قليلا ، ثم قال مرحا : — ساخطبك اليوم أو غدا من ذويك ياعزيزتى وساكون أسعد شبان العالم إذ ذاك . وحينئذ اكتأبت زبيدة قليلا ، وحولت وجهها كأنها تبحث عن أطراف الحديث ، ثم قالت مترددة :

— قد لاتود البناء بى ياعزيزى . لأنى مجهولة الوالدين ، ولا أحد لى فى هذا العالم سوى ذلك القوم الذى يزعم أنه أهل لى ، ولا أشعر نحوهم الا بعاطفة

العرفان بالصنيع فحسب . فضحك الشاب مرة أخرى ضحكة قصيرة ، وهز كتفيه قائلا : ـ وماذا يهم والديك ؟ . . انى أريد زواجك انت ولست اطلب ابويك ومهما كان بك فلست ابالى بما يكون . إذ الحب أعمى لايرتبط بشروط ، وحبي لك واضح جلي مبنى على أساس نفسيا .

وحانت منه التفاتة نحو غصن فشاهد عصفورا يناجي البغته بألحان الغرام فابتسم وقال لها : ـ انظرى إلى هذين ! . هل يسأل أحدهما عن ذوى الآخر كلا كلا إنهما سعيدان يعيشان فى هناء ومحبة ، لايعرفان قوانين سخيفه كتلك التى يستند اليها الناس ، ويتخذونها سبلهم التى يسيرون عليها فى الحياة . . ولكن ماأدناها قوانين وما أقذرها قيود . إن حياة الطبيعة والأجيال الأولى العتيقة الماضية لهى أحب الى من تلك المدنية المزوقة المزيفه التى تربط الانسان بقيود وثيقة . قال ذلك ونظر اليها نظرة خاصة هادئة ، وتناولها بين أحضانه وكاد يميل على فمها مقبلا ، غير أنه عدل عن ذلك ، ثم دفعها عنه برقة ، ودهشت الفتاة لأمره ولكنه أسرع قائلا : ـ لاأقبل ياعزيزتى أن يتداخل بيننا الشيطان اللعين . أريدك زوجة طاهرة نقية لم يتدنس فك قط بقبلات الشباب الطائش لذلك لا أقبل أن أفعل معك هذا الطيش . ولتكن ساحة الزوجية أوسع لنا لتأدية مثل تلك الأمور منها فى هذه الظروف . ولتتعهدك عناية الله .

فسرت زبيدة لقول حمدى وتأكدت من اخلاصه وحبه الشديد لها ، وقالت له جذلة : ـ يالك من شهم ياحبيبي ! ليت كل شباب مصر يتخذونك مثلا لهم يقتدون بك ، ويصنعون منك نموذجا يقفون طريقتك منه ، ليت كل الفتيان على شاكلتك فيصعد بهم الوطن الى الذروة القصوى من النجاح باركك الله بالمثل ، ولتخطبني الليلة أو غدا وسأطلعهم على محبتى لك ومكانتك فى قلبي . ولم يتمالك الا وتناولها بين ذراعيه ، وقبلها على جبينها قبلة قوية تفيض حنانا وحبا واخلاصا ، وأجابته هى بدورها فطبعت على جبينه قبلة تحوى مثل ماتضمنته قبلته ، وخرج الاثنان من الخميلة ترفرف عليهما أكاليل السعادة وباقات الحب والغرام : وافترقا عند مدخل البلدة على أمل أن يحضر فى مساء الغد ليطلب يدها من خالتها وزوجها . . .

توجهت زبيدة الى المرأة التى تسميها خالتها ، وأطلعتها على كل ما فى الأمر فقرحت كثيرا ، وسرت جدا . وكيف لا وابنة اختها سيعقد لها على شاب ذى مركز حسن يتناول مرتبا عاليا ، وازداد اطمئنانها حين أطلعتها على عفته ، وبسطت لها أخلاقه على مائدة الحديث الذى خرج طرف منه من فم الفتاة يتقطر عذوبة وحلاوة . اعترت المرأة والفتاة بوادر السرور والفرح ، فما لبثت الأولى أن قالت لزبيدة : — هيا بنا الآن الى الحاج عمر ليبارك لك ويطلعك على ما سيحدث لك من الامور مع هذا الشاب . فعافت الفتاة هذا الطلب ، وبدت فى ضيق بين ، وقالت فى غضاضة واشمئزاز : — لست أحب هذه المظاهر يا خالتى فجدير بى ان اترك حبل الأمور تسير كما يريد الله لها . ولكن المرأة اصرت على الفتاة ، والمرأة التى تسقط تصبح ضعيفة ، وعقل الضالة يزين للفتاة الخمر ماء ، فما لبثت ان نزلت عند مطلبها ، وقصدتا الرجل فى الحال ، واستبقتها المرأة فى الدخول فما شاهدها حتى صاح فى سرور — آه .. فاطمة ! ما احسن الصدف لقد .. فأشارت له اشارة خفية سريعة ذات معنى جملته لا يتم حديثه ، فعرف انها مصحوبة بمن تخشى منها اذا وقفت على طرف من اسرارها وتقدمت المرأة منه تجذب زبيدة المجهولة بعنف ، وقالت : — هذه ابنة اختى يا حاج عمر . ارجو أن تكشف لنا عن مستقبلها بخصوص فتاها الذى تحبه . . وأمعن الرجل فى الفتاة ، فكاد قلبه يطير من بين أضالعه ، لولا استعادة رباطة جأشه ، وابتسم لها ابتسامة خاصة وقال بسرور : — على بركة الله . أيتها الجارية ، أرى مستقبلا باهرا محفوفا بعوامل الحب والهوى . حاميين تبنيان عشهما فى الفة ووداد ، يتناجيان الأحاديث البهيجة . مأوى جميل ما كنت تحلمين بالحصول على مثله ولا تحلم بذلك جل فتيات البلدة . أثاث فاخر يضم بينه ثمرات الحب والغرام

فغطر الخفر على وجنتى الفتاة ، وابتسمت المرأة سرورا ، وقد علمتا ان حظ ابنة اختها غاية فى الحسن ، ونظرت اليها نظرة ذات معنى وسمعت الرجل يستطرد قائلا : — وأرجو أن تحضرى فى غروب الغد (منفردة) حتى أبارك لك وأمنع عنك شر حسد النساء . وخرجتا من لدنه والفتاة قلقة غير مرتاحة الى كلامه وميعاده ، وفاطمة تمدح لها قوة معرفة الرجل

الفصل الثاني عشر — قصتان قديمتان

لنرجع بالقارىء الكريم الى ذلك العهد القديم الذي افتتحنا به هذه الرواية في تلك اللحظة المريعة التي حدثت فيها الفاجعة المحزنة التي ارتكبها (تهامي) ذلك الشاب الشرير ، ولنتم الحديث عنه منذ القى بنفسه في نهر النيل بتلك القفزة التي ارتاع لها مطارديه :

غاص في الماء الى عمق بعيد ، وأخذ يسبح بقوة هائلة ورأى أن التيار يجرفه بعيدا في سبيل النهر ، فترك له نفسه ترفعه لجة وتخفضه اخرى ، ودب التعب الى جسمه ، وكاد يفقد قوته التي لم تبق له المقاومة منها الا مالا يسمن ولا يغني من جوع ، وتذكر الموت ، وما أروعه لديه من أمر ، فجمع ماتبقى من عزيمة وطلب الشاطىء الآخر ، وساعدته الامواج في الخروج من النهر بل ساعده الشيطان يريد ارساله الى عالم الشر عونا من أعوانه الأولى يبثون الالحاد والفساد في الصدور . وخرج من الماء وقد لاق الأمرين ، يكاد يسقط خورا ، ونظر الى الوراء نظرة أخيرة ، فلم ير سمنود ولا مايدل على وجودها ، فتأكد انه أصبح في دائرة أخرى ، وقد اطمأن قليلا لذلك ، وما كاد يسير قليلا تاركا النهر خلفه حتى سقط في اعياء عميق .

ورجع اليه شعوره في الصباح ، فقام وقد استرد قواه ، وصار كمن لم يصادف شيئا في سبيله ، وشعر بالجوع يهدد امعاءه ، فسار الى حقل مجاور وتناول من خضرواته مايسد به رمقه قليلا ، ثم اتخذ الاسراع ديدنه حتى لايظفروا به اذا حدثتهم انفسهم بمطاردته .

ودب اليه التعب ، فأخذ يسير الهوينا يخرج من حقل الى طريق ومن طريق الى غدير ، حتى وصل الى ظاهر السنبلاوين مع غروب الشمس ، وقد تغير شكله وانتكر حاله وتلاءخت ملابسه بالاوحال والاقذار وتمزقت منها بضع أجزاء من فرط اجهاد نفسه في الفرار . وأتى الى شجرة وارفة الظلال ، يبغي طلب الراحة ريثما يقضي الله أمراً كان مفعولا . وأسند ظهره الى الجذع وغفت عيناه قليلا ، ولم ينتبه الا على صوت سعال طرق أذنه من جهة قريبة ، وكان الطريق خاليا مابه من طارق ، فأجهد نفسه وزحف متهالكا جهة الصوت

ليلتمس من صاحبه شيئاً يتبلغ به . ودنا من رجل كان يقيم فرض ربه فى مصلى متواضع على شاطئ غدير ذى ماء جار ، وانتظر حتى اسلم الرجل صلاته ، وصاح بصوت ضعيف لفت أنظار المتعبد اليه :

ـ ألا من حسنة لله أتبلغ بها ! . . لقد مر زمن طويل لم أذق فيه طعماً للأكل .

ونظر نحو الرجل ، فرآه شيخاً متقدم العمر ، ذو لحية بيضاء ، تلوح عليه علائم الزهد والتقوى والتفانى فى عبادة الله ، لايفتأ يكرر كلمات التوحيد على حبات سبحته ، ونظر هذا بدوره الى تهامى ، فميز عليه آثار البؤس والشقاء وهناك كثير من البؤساء يطوون بين جوانحهم اسرارا لو علم بها فرد من الهيئة الاجتماعية لبدد من صدره عواطف الشفقة وعمل على ابادتهم من هذا العالم ، وطرقت صدر الشيخ عوامل الاشفاق ، وما كاد يخرج من المصلى حتى ارتمى تهامى تحت قدميه ، وصاح فى تذلل : ـ سيدى ، اتخذنى خادماً لك ، لا أبغى سوى قطعة خبز ، اتبلغها حتى أرد عنى غائلة الجوع ، فانحنى عليه الرجل ، وداعب شعره بدافع الشفقة والحنان ثم ساعده على النهوض بعد كل عنف ، وأمعن فيه النظر ، وقال له بصوت لين : ـ أطلعنى أمرك أيها الشاب . لقد مزقت فؤادى بشكلك البائس هذا ، حتى لأن حالك التى طبعت فى ذاكرتى قد تقض على مضجعى فلا أجد الى النوم سبيلا .

وتردد تهامى فى الامر ، ولكنه تلمس الشفقة فى صدر الشيخ مجسمة ، وعلم أنه رجل لا يخشى منه ضرراً ، فقال فى صوت متقطع امتد اليه عبث التأثير :

ـ انى من أولئك الذين غرهم الشيطان . . نعم ، ولكن توبتى على يديك بعد فعالى المنكرة . وقلب الشيخ الأمور على علاتها ، فأخذه باليمين نحو البلدة قائلا :

ـ مادمت قد تبت عن ماضيك أمامى ، فتعال معى وكفر عن أخطائك ، وابدل اسمك اذا شئت . فبدت على وجه تهامى علائم السرور ، ودعا عليه الشيخ (ابراهيم) . ومنذ ذلك الحين أطلق على نفسه عمر .

***

صارت الفتاة التى انتهك تهامى عفافها فى حالة يرثى لها من الألم وتعذيب النفس وانتهكها الحزن ، فاستغلت أثر ذلك فى مرض شديد ، وأصبحت ذاوية كسيفة البال خجولة ، رغم أن عفافها قد فقد دون ارادتها وبعد أن قاومت مقاومة

شديدة ، وأتت اليها أمها ذات يوم ، وجست نبضها فوجدته غاية في الضعف ، وقد أشرفت على الهلاك ونظرت الفتاة الى أمها نظرة اليأس من الحياة ، وقالت بصوت خافت : — أماه . انى أشعر بدنو أجلى . . أشعر بشبح الموت يقترب منى

فطفرت الدموع من مقلتى أمها ، واجهشت فى بكاء عميق ، وعانقتها قائلة :

— كلا . . كلا لا تذكرى ذلك يا ابنتى ، انى اضحى بنفسى كى يمد الله فى أجلك

واخفت الفتاة وجهها فى الفراش بضعف ، ثم اقتربت نحو امها ، وبكت بكاء عميقا ، واخذت تنشج نشيجا عاليا وامسكت عن ذلك هنيهة ، وصاحت تهمس لأمها : — أماه . . انى اشعر بشىء يلعب فى احشائى . . ماهذا ؟ . ماهذا ؟

ففحصت الأم ابنتها ، وهنا تجلت لها الحقيقة المرة واضحة . وازداد بكاؤها وجمدت عيناها فى محجريها ، وقالت للفتاة بكلمات متناثرة اجهدت نفسها فى نطقها

— بنيتى . . انك حامل . . نعم حامل بجنين من ذلك الشرير . ازهق الله روحه . يجب اذن ان نعد عدتنا ونسوى الأمر حتى يتم الاجهاض بسهولة

فما ان سمعت الفتاة قول امها حتى صرخت صرخة رائعة مزقت احشاء السكون الساكن على ارجاء البيت ، وسقطت للحال فى اغماء عميق . وهلعت الأم فى تلك اللحظة ، وتمثل لها هاتك عرض ابنتها فودت لو تراه الآن لتنتزع منه روحه جزاء اعتدائه على بريئة مسكينة دون ذنب جنت . ونظرت إلى ابنتها فى اغمائها فامتلكت رباطة جأشها ، وعلمت ان حالة الفتاة عصبية ، فأخذت تقدم لها يد المساعدة بجهد ماملكت ، وصارت تجرى لها الاسعافات اللازمة بعناية ونشاط حتى رجعت اليها حالها المعتادة . ونظرت الأم الى ابنتها نظرة عطف واشفاق ، واخذت بيدها على جبينها ، وقالت لها مرفهة :

— ان مرضك ياعزيزتى ناشىء عن حملك ، فلا تخشى على نفسك سوء غدا سأسافر بك الى السنبلاوين عند أختك (منيرة) وهناك تضعين حملك فى سلام ، وستقوم اختك بمساعدتك بمعاونة صغراكما فاطمة ، وحذار من مد الضرر الى الجنين خشية حصول مالا يحمد عقباه لك .

وهكذا ففى الصباح سافرت المرأة تصحب ابنتها الى السنبلاوين ، وهناك مكثت بقية ايام حملها دون ان ترى عرض الطريق ، وجاءها المخاض اخيرا

ووضعت روحها لتزهق روحها .. اذ اسلمت الروح ثالث ولادتها متأثرة بحمى النفاس التي هاجمت جسمها ، وبعد ان مرت ايام الحداد رجعت الأم الى سمنود ، وعهدت بالطفلة المولودة الى منيرة ابنتها الأخرى المتزوجة ، وكانت فاطمة تعهد الطفلة برعايتها وتسهر عليها اسهر الأم على ولدها ، ولا غرو فانها شعرت بعاطفة اشفاق غريبة نحوها ، فأحبتها حبا جما .. وهي التي دعتها (زبيدة) ..

وشبت فاطمه وعرفت قصة أختها المؤلمه ، وسافرت منيرة الى الوجه القبلي مع زوجها تبعا لأشغاله المعيشية ، واستقرت فاطمة في البلدة ، وبلغت السادسة والعشرين ولما تتزوج بعد . وقد بقيت زبيدة في حوزتها ، وقد أحبتها هذه بدوها وجعلتها كائم لها .. وتزوجت فاطمة من رجل ذي قلب طيب ، فغمر عطفه على الفتاة التي ترعرعت الآن وأصبحت في سن يسمح لها بالسكوز الى رجل

الفصل الثالث عشر — المعجزة المنتظرة

كان للحوادث الأخيرة التي حصلت في البلدة ضجة هائلة لم تواجه مثلها في مختلف أدوار تاريخ حياتها الحافل بالهدوء والسكينة واستتاب الأمن ، فراح كل فرد يظهر استياءه ضد ذلك المجرم الكبير الذي قيدت الجرائم كلها وحفظت باسمه (مجهول) ، وحمل كل الاهلين حملة واحدة عنيفة على ذلك الشرير ، واتفقوا على انتخاب رجال اشداء مشهورين بالمكر والدهاء وليوقعوه في شراكهم

ومن جراء تلك الحوادث التي شغلت كل الرأي العام في البلدة ، وفي سائر أرجاء المقاطعة بل وفي بعض مدن مختلفة أخرى من القطر المصري حيث يقطن أقارب القتيلات ، تحول اهتمام الناس عن الحاج عمر ليتفرغوا لاسقاط ذلك المجرم المروع حتى يقتص منه كل ذي حق بدوره . وفي خلال ذلك حدثت ظاهرة كان سببها الحاج عمر ، واعتبرها جل الأهلين معجزة لا رجل تدل من جديد على قدرته الخارقة التي توهمها الجهلاء أثر حاد وليد الوهم والخيال ، كان في مكنة كل من له المام بأسرار علم الفلك أن يأتيها . . وتلك الظاهرة الجديدة هي حمل المرأة فاطمة التي مكثت مع زوجها أربع سنين كانا في خلالها عاقرين حتى أتى الرجل فذلل لهما عقبة النسل بقوته السرية القريبة من الله سبحانه وتعالى مما حول اليه أنظار الأهلين شيئا ما . وكانت هنالك حلقة خفية من سلسلة

اعمال الحاج عمر لايعرفها أقرب شخص اليه بل ربما نسيها نفسه بعد فعلها ، فقد كانت النساء تتناول أحاديثهن أعمال الرجل الخارقة في مجالس سمرهن ، فذاع صيت الرجل بين الجنس اللطيف : وهن بطبيعتهن جنس ضعيف يركن الانسان الى مواطن الضعف فيهن ، فيفوز منهن بما يبغى . فكانت كل تعتزم في نفسها الذهاب إلى الحاج عمر دون أن تطلع زميلاتها ، وفي الواقع كانت كل امرأة تسمع عنه بمثل تلك الأقاصيص تظل تحدث نفسها بالذهاب بمفردها حتى يكشف لها عن سر موقعة من مختلف دواعيها ، أو أقصوصة سخيفة مما اشتهر عنه أو استشارة عن أمر ذلك العفريت (الحبشى) أو (المغربى) أو من أى جنس آخر لبس جسدها ، وكيف السبيل الى طرده عنها . . إلى غير ذلك .

وأخذ يحكم شباكه حول كل من تقصده منهن ، فاذا آنس ضعفا في إحداهن بث حولها أساليب دهائه ويتربص لها إذ يحز مرة بكلام يطعن به في الصميم حتى تسلم له قيادها وتطيعه صاغرة ، تلبي كل مايطلبه منها ، من مال وطعام وشراب ، وارتشاف الهوى بين الأحضان والنهود يحيي أوقاته في سرور ، وحبور . كل ذلك بمعزل عن أعين الرقباء . ولكن عين الله لاتغفل ،

وإذا ما آنس في امرأة أنها سئمت أفاعيله ، وتكشف بعض نواحي ضلاله يعمد لها بحديث يجذب أشواقها ، ثم يفوز منها بموعد خاص في الليل ، وفي الظلام توافيه إلى مقره ، وما تكاد تقف أمامه في غرفته حتى يتذكر الشر الذي يهددها منها ، فينظر اليها نظرة ذات معنى ، ثم يطيب خاطرها ويطمئنها ، وبعد ذلك يضرم النار في الموقد ، ويضع فيها شيئاً خاصا ماتكاد تشمه حتى تغيب عن صوابها ، ثم يتركها قليلا حتى يستولى الخول على أعصابها ويرجع اليها وقد ركب ابليس عقله يحبذ في تلك اللعبة التي لاتعب فيها ولا نصب :

بطعنة شديدة من رمح قصير ذي طرف مثلث في صدرها تخر في مكانها دون حراك ، ودون أن تنبث ببنت شفة ، ويأتي اليها فيجدها قد أسلمت روحها الى خالقها بريئة تشكو ظلم الانسان ، حينئذ يطمئن على نفسه من غائلة الاعتداء ، وينزع الرمح من مكانه ، ولا يجعل الدم ينزف كثيراً احتياطا للامر وينزع عنها ملابسها حتى تصير عارية ، ثم يقف على رأسها يمتع مرآه بمنظره

فرحا مسروراً لما أتاه ، ويضحك ضحكة جنونية ، ويربت الجثة على صدرها وفي برهة وجيزة يضعها في سلة متوسطة الحجم ويحملها بقوته المتينة ، وفي الهزيع الأخير من الليل حين تكسو الحلكة برداءها البلدة ودورها ، يخرج من منزله متلصصاً وفي يده معول صغير ، ويسير في طرقات هادئة ، خالية من الحرس . وفي البقعة التي يقع اختياره عليها ينزل السلة ، وفي ثوان معدودات يكون قد حفر القبر ويلقي مامعه ، ويهيل على الجثة الرماد ، ثم يرجع بعد ذلك إلى منزله ، ويعيد كل شيء الى ما كان عليه ، ويتوجه بعد ذلك الى فراشه ويندس بين الأغطية كحاله المعتاد كأنه لم يفعل شيئا رهيبا يحاسب عليه حسابا عسيرا . هذه هي طريقة ذلك المرعب في سفك دماء ضحاياه البريئة دون شفقة أو حنان ، حتى ضجت البلدة بمو بقاته ، وثارت كلها ثورة رجل واحد يطلبون رأسه ليزخرفوا به مكان مرتفع في سوق البلدة حتى يكون عبرة لأمثاله . وعلى ذلك أمعن في أمره جداً ، وعرف أنه قد أصبح على شفا أحد أمرين : إما الهلاك وهذا أقل ماينتظره . والفرار وهذا أهم مايجب الركون اليه دون أن تأخذه في ترك البلدة لومة لائم .

ورأى بثاقب فكره أن يحول آراء القوم الى جهة أخرى حتى يستتب حاله قليلا ، أو حتى تسنح له الفرصة في جمع ماقد يكفيه بقية حياته في فراره ، وفكر أن قوات القوم المؤتلفة ودهاء العسس السرى الذى انتشر وأخذ يترصد كل صغيرة وكبيرة في البلدة ، وتلك الأبحاث الجبارة ، قد توقع به رغماً من احتياطاته بل لابد أنها موقعة به يوما ما ، فعول على أن يعمد الى سخافة من سخافاته يبرقشها للقوم بأسلوب دهاء ومكر حتى تدخل في عقولهم الجاهلة الأولى هي أشبه في فراغها من فؤاد أم موسى ، وطرأت عليه حيلة اقتنع لدى التفكير فيها أنها فية لأداء أغراضه . وعلى ذلك خرج قبيل عصر اليوم التالي حتى زيادة اليه وسار في الشوارع بالأوحى ، وهو يردد هامسا الأسماء الحسنى مسرعاً في فرط خبوب (سبحته) كتلك المرة السابقة في ادلائه بأمر القوس قزح ، ولاحت حاله أنظار الناس ، فساروا خلفه ، وهم يتعجبون من مقدرته الخارقة ، متأكدين الآن أنه سيدلي اليهم بأمرهم ، أو ذاهب في مهمة تفتقر الى دراية الزهد والتقشف .

وقادهم الى ذلك المكان الذى قابل فيه الشيخ ابراهيم قديما ، والذى التقى

فيه ما أسموه نبوءة (قوس المطر) حديثا . وتقدم من المصلى وأقام فريضة العصر بصوت جهورى ، وأسلم صلاته ، ثم نهض خارجا ، وما كاد يسير بضعة أقدام حتى وقف في مكانه فجأة ، وتقلصت عضلات وجهه ، وأصبح في حال نكرة لم يروها من قبل ، فارتعبوا بأكملهم وساد عليهم الذعر والهول .

وخر ساجداً فى مكانه فترة قصيرة ، ثم نهض وأخذ يمعن فيما وراء السحاب فانتفض انتفاضة رعب نالت من القوم مثل ما نالت منه ، وحول اليهم نظره ، وتفرس فيهم ، ثم أشار بيد مرتجفة يائسة قائلا :

ـ أياقومى : لشد ما يؤسفنى ويدخل الروع فى نفسى تلك الحوادث المرعبة التى ظهرت أخيراً في بلدتنا التى كان يسودها الهدوء ، وتقوم فيها المحبة مقام القانون . وانى لأأنس ابداء سخطى على ذلك السفاك الذى لم يرع حرمة قوم ضعيف ، فوضع التنكيل بنسائه ديدنه ، وأراد سفك دمائهن مبدأه . وانى لأرجو الرجاء كله أن أوفق قريباً الى معرفته حتى أقدمه لكم تصنعون به ما شئتم جزاء وفاقا . وسر الناس جداً لقول الرجل مما يوافق نزعتهم ، ثم سمعوه يستطرد :

ـ وانى ياقومى لأشعر أنكم ستظفرون به قريبا ، وأملى حينذاك ان تمثلوا به أشنع تمثيل كما مثل بنسائكم من قبل ، ولكن خذوا نصيحتى : ابحثوا عنه قبل اسبوعين والا فلن تصل اليه أيديكم لأن الطبيعة ستساعده على الفرار نعم ستساعده على الفرار ، ولكن الى الموت ، والكل منا هكذا مصيره فالعالم سينفجر بعد تمام اسبوعين ولا يصبح هناك شيء اسمه (العالم) .

نعم سينفجر قطعا فى الفضاء الكونى . ومن لا يصدقنى فليصبر وليرو السلام وانتفض الناس وقد ساد عليهم السكون ، وقلب كل منهم يدق دقا عنيفاً وتركوا بأجمعهم امر القاتل والقتيلات واخذوا يفكرون فى هذا الامر .

الفصل الرابع عشر — كشف القناع

رجع الحاج عمر الى البيت وقد تأكد أنه تحسس تلك النغمة التى كان يرجوها ، واختلس نظرة من نافذة الغرفة الى بعض المارة فرآهم يهمسون بما أدلى به ، والكل فى وجل من هذا القضاء العاجل ولذلك باتوا كلهم فى رعب وفزع من هذا الفناء الطارئ . وبينما هو يجيل الطرف فى عرض الشارع إذ

رأى زبيدة قادمة ، فأعد عدته لمقابلتها ، ثم ذهب وادخلها وابتسم لها فى سرور ، وقال لها فى امتحان : ـ لقد حضرت . اذن أنت تثقين بى . فخفضت بصرها واطرقت تفكر ثم قالت فى صوت منخفض اجش :

ـ اثق بك لما ارى بالمدة بأكملها تضع املها فيك .

ونظر اليها الرجل فأخذه جمالها ، وود لو يمتع نفسه بارتشاف الهوى بين احضانها ، ولكنه ارجأ هذا التعليل حتى تحين الفرصة .

ونظر نحوها فوجدها تمعن النظر فيه باستخفاف ، فقال لها :

ـ هاتف حانت الفرصة التى فيها أباركك . ستخرجين من لدنى فى صحة وقوة تشكرين من جرائها الله الذى جمعنى فى طريقك . فحدجته زبيدة بنظرة تتضمن كل معانى السخرية ، الا أنها أسرعت وأخفتها حتى لا تجرح شعور هذا الرجل الذى يود اسعادها كما أدخل فى روعها . ورأته يشير لها بمتابعته فسارت خلفه ، وولج بها حجرته الخاصة وهناك أضرم النار فى الموقد ووضع فى لهيبها قليلا من العقاقير القوية ، فتصاعدت سحائب بيضاء كثيفة ، وأمر الرجل زبيدة بالتقدم منها ، فما كادت تأخذ مكانها حتى خرجت الى عالم آخر هو عالم الخيال والأحلام المليء بالسعادة ، ثم مال رأسها وسقطت فى شبه اغماء .

***

قصد حمدى ووالدته منزل زبيدة يبغيان خطبتها من زوج خالتها ، وقابلا فاطمة ، وسألها الشاب عن الفتاة ، فاخبرته أنها قصدت الحاج عمر ليكشف لها عن حافظ لها من شر حاسد اذا حسد . وقد اكتأب سريعا للطارىء فى نفسه ، وأخذ يفكر ، وصار يضرب أخماسا لأسداس ، وأخيرا جمع شتات حواسه ، وقال للمرأة متسائلا : ـ هل ذهبت الى هنالك وحيدة أم مصحوبة ؟ . .

فاجابته فى سرعة ولكن بهدوء واضح :

ـ انه اشترط ذهابها اليه منفردة ، ولقد وجدت غضاضة فى ذلك ، فطلبت منه استصحابها اليه ولكنه رفض بشمم واباء ، خشية نفور الوسطاء ، فنظر اليها حمدى شذرا وتناولته الهواجس ترمى به فى لجج مضطربة لا يدرك كنهها الا انه ألم بطرف منها . والتفت الى فاطمة وقال لها فى نشاط : ـ سأذهب الى الحاج عمر لأحضر زبيدة معى من لدنه . . انى ابغى الأسراع فى عقد الخطبة

قال هذا ولم ينتظر ادنى كلمة ، وانطلق خارجا . ووصل إلى مأوى الحاج عمر ، واقترب من الباب يريد طرقه غير أنه ميز السكون مخيما على أرجاء البيت ، والنوافذ مغلقة ، فتوجس خيفة ودق قلبه بين أضالعه ، وأسرع واستدار خلف البيت ، وقفز على السور إلى الفناء بخفة ، ولم يشعر به أحد ، فظن البيت خالياً . وابتغى التلصص ليرى مايكون من أمر ذلك الرجل فى حياته الغامضة .

وتقدم من باب الفناء ، فرآه مغلقا غير انه فك رتاجه ، ودخل متلصصا فوجد نفسه فى البهو الخلفى ، وأرهف سمعه فميز السكون كالقبور . ورأى نفسه بجانب حجرة لم يميز ماهيتها لشدة حلكة المكان ، وخشى أن ينير فيكتشفه الرجل .

وتقدم إلى الامام ، وصار لايعرف طريقه لحلكة الطريق ، وصادف فى طريقه بابا ما كاد يلمسه حتى فتح ، ودخل الغرفة واجترأ فأنار مصباحاً كهربائياً معه ثم تعودت عيناه الضوء ، فرأى أثاث الغرفة متفرقا ، ولفت نظره آثار دماء على خزانة ملابس قديمة ، فاقشعر جسمه . وفتح الخزانة تحت عامل الاستطلاع فتولاه الفزع لدى رؤيته ملابس نسائية عليها بقع دموية . وميز بين تلك الملابس ثياب زوجة أخيه ، فاستغرب الامر وفجأة مرت بخاطره ذكريات القتيلات . فتأكد الآن انه امام مرعب البلدة وسفاكها ، فوضع الأمتعة كما هى وخرج يقصد اول البيت ورأى في طريقه غرفة مضيئة فاقبل عليها ووقف يرهف سمعه خارجا ، ولكنه لم يميز شيئا .

ونظر فى خصاص الباب فرأى زبيدة ملقاة على الارض فى حالة اشتباه ، وما ان شاهدها كذلك حتى ولج الحجرة ، وكان ينتظر المقاومة من الرجل او الدفاع ، غير انه دهش عند ماتحقق عدم وجوده فاسرع الى الفتاة وحملها بين ذراعيه ، وخرج بها الى الفناء ، ووضعها بجانب السور حتى يجد وسيلة يخرج بها من حصن هذا السفاك .

وما كاد ينتصب فى مكانه حتى سمع فى الداخل أصواتا وضجة ، وميز صوتا سائليا ، والحاج عمر يهدر ويثور قائلا : — زبيدة . ابنتى . أين أنت يازبيدة ؟ . يفتعجب حمدى من كلام الرجل ، ودهش لمناداته زبيدة بابنته ، ثم رأى نورا تتقدم ، فأسرع وأخبأها فى مكان أمين ، وخرج فجأة إلى الرجل ، ورأى

خلفه المرأة فاطمة . ودهش الحاج عمر لتلك المفاجأة ثم تمالك روعه ، وصرخ فيه قائلا : ـ أية ريح خبيثة حملت بك إلى هذا المكان ؟ .

فقال حمدي يضرب على الوتر الحساس : ـ ريح جرائمك وموبقاتك الخبيثة هي التي جذبتني الى هنا . فامتقع الحاج عمر ، واحتد ينفي قول الشاب مغالطا ولكن هذا أسرع اليه ، وقال ووجها يربد بعواطف المقت والانتقام :

ـ نعم سفكك دماء البريئات ظلما وعدوانا هو الذي ساقني اليك لأضع حدا لشرورك ، أدار بخلدك أن ثياب ضحياتك التي في خزانتك لن تشهد عليك ، ظننت انك تنجو من طائلة العقاب ولكن عين الله لا تغفل . وحاول الحاج عمر أن يرتد على عقبيه ليلوذ بأذيال الفرار ، غير ان حمدي اسرع وامسك بتلابيبه ، ومنعه من ابداء اية مقاومة . وفي تلك الآونة تدخلت فاطمة في الأمر وقالت ـ انه والد زبيدة ياحمدي . نعم هو والدها . كان قد اعتدى على عفاف اختي في ممنود بظروف عجيبة اغرب من الخيال ، ثم ضرب في الفرار حتى هنا وماتت اختي بعد ان وضعتها ، وقد اعلمته بسر مولدها ففرح قائلا : انا ابوها يافاطمة . فانكريني منها لأني لا استحق ان اكون اباها ، والآن ياحمدي بما انك ستتزوج منها فأرجوا ان تمهد له سبيل الفرار حتى لا توصم زوجتك بالسوأى ، وما ان سمع حمدي كلامها حتى ترك الرجل من قبضته ، ووجد نفسه في موقف حرج ، بين ان يسلمه الى الشرطة فيرضي ضميره ، وان يخلي سبيله فيرضي واجب الحب وامعن قليلا في الأمر ففضل الراى الاخير فقال له :

ـ سر الى حيث تختفي عن الأنظار ولا تعد الى هنا بعد ، هيا ياحاج عمر .

فبكى الرجل بلوعة ، ثم قال بصوت حزين : ـ ان اسمي تهامي وليس عمر .

الخاتمة

بات كل من الثلاثة مطرقا رأسه لذلك الموقف الرهيب ، وعقدت السنتهم فلم يتكلم احد منهم واخيرا قطع حمدي حبل الصمت ، فقال في صوت الآمر .

ـ هيا واهرب ايها الرجل . . ماذا تنتظر ؟

فرمقه الحاج عمر شذراً ، وارسل له نظرة مبللة بالدموع ، ثم قال له بعزم .

كلا . لست بذاهب اليوم ! اني كنت لاقدم على ذلك في ظروف اخرى

obeikandl.com

ولكن الآن حين تبينت ان لى ابنة كلا ، ولو اطعتك ياسيدى وركبت باذيال الفرار لعدت فقاطعته فاطمة متألمة : — ولكن تذكر ياعزيزى أن ذلك مما يؤلمها . . فهى تود لو تعلم عن أبواها كثيرا ولكن لم تسمح تقسى بله الواجب أن أصرح لها بمثل تلك الأمور السيئة فأطرق الرجل مفكرا فلما رأى انها على صواب مالبث ان التفت الى حمدى وقال : — انت تحب زبيدة ياحمدى . اليس كذلك ؟ . فقال الشاب — بكل مافى من عاطفة ياسيدى .

— اذن يكفى لحبها رجل واحد يحميها ، وانا اتوسم فيك ذلك . . اما انا فجدير ان اختفى الى الابد . . هيا بناسويا لأمور يجب ان تكون فيها معى

قال هذا ثم التفت الى فاطمه قائلا : — واما انت فخذى زبيدة واذهبى معها إلى منزلك . وجذب يد حمدى وانطلقا يعدوان فى الخارج . . ولم يحاول الشاب ان يعترض ، بل ترك نفسه تنقاد له فى شوارع البلدة حتى رآه قاصدا دار الشرطة ، وواجه الضابط المختص قائلا : — لقد قبض على هذا الشاب بتهم ارتكاب جرائم قتل النساء . . ودهش الضابط لقول الرجل متفرسا فيه ، ثم حول نظراته الى الشاب ، ولكن الحاج عمر صرخ فيه بشدة قائلا :

— هيا . . هيا واقبض على . لقد سئمت الضلال نأريد الرحة .

وانتشر بين اهل البلدة نبأ القبض على الحاج عمر ، واسندت اليه تهما كثيرة ، قيل انه اتى من سمنود بعد ارتكاب جريمتين منذ تسعة عشر عاما ، واسمه هذا مستعار . . فانقسم الناس فئتين : اولى تدافع عن الرجل واخرى تؤيد ماذهب اليه اولى الأمر . واتى اليوم الذى عين فيه الحاج عمر هلاك الأرض وظل القوم يتوقعون انفجارها غير ان شيئا من ذلك لم يقع ، فاخذوا يلعنون الرجل لتدجيله عليهم ، ثم تركوا امره وذهبوا الي حمدى وزبيدة ليهنئوهما على الزفاف . . . اما الحاج عمر فانه قد اندم شنقا فى المنصورة فى اللحظة التى كانت زبيدة ابنته ، تعانق حمدى ، والشاب يقبلها القبلة الأولى . .

تمت بحمد الله وحسن توفيقه